

إدغار موران

جان بودريارد

عنف العالم

تقديم

ابراهيم محمود



ترجمة

عزيز توما

علي مولا

عنف العالم

- **عنف العالم**
- **إبراهيم محمود**
- **الطبعة الأولى 2005**
- **جميع الحقوق محفوظة للناشر C**
- **الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع**
- سوريا – اللاذقية – ص.ب: 1018**
- هاتف وفاكس: 963 41 422339**
- البريد الإلكتروني: soleman@scs-net.org**

إبراهيم مجمود

عنف العالم

دار الحوار

الفهرس

7	جماليات العنف
43	1 - بصدد عنف العالم — ماتي كابل .
45	2 - عنف العالم — جان بودريارد
67	3 - مقدمة لمداخلة ادغار موران
73	4 - في قلب الأزمة الكوكبية — ادغار موران
93	5 - حوار مع ادغار موران .
103	مقامات العنف

جماليات العنف

كل شيء يبدو كما لو أن ثورة كوبرنيكية من نوع مختلف، وعلى مستوى متمايز هذه المرة، قد فاجأت إنسان اليوم، كما لو أن العالم اليوم يشكل النقيض الكلي المحض لما كان حتى الحافة الأخيرة للقرن المنصرم، كما لو أن الأنظمة والدساتير والسياسات المعرفية قد زحزحت عن مواقعها وتم تشفيرها بصورة مفاجئة، كما لو أن (أن) هذه باتت عفريثاً كونياً فجّر قمقمه الكوكبي، وفتح صندوق باندور المرعب في كل الجهات، كما لو أن الذي حدث في التاريخ الذي نشهده في عنفه الكوني، قد جاء من خارج التاريخ. وكأن التاريخ الذي شهدناه حتى سنوات قريبة لم يكن التاريخ المدون حقيقةً، بل ربما هامشه أو ما دونه.

يدخل البشر من كل الأجناس وفي كل مكان في حلبة العنف، بل يتحولون إلى حلبات عنف شاؤوا ذلك أم أبوا، لا اختيار هنا، فالعنف أصبح سيد الأحكام على صعد شتى، ولأول مرة يتوحد العالم عبر العنف.. هكذا يبرز المتن وكأن لا هامش له، إذ العنف يوحد بين الشكل والمضمون.

هذه المشهدية في صيغتها البانورامية قد تبد وحديثاً عن فلم خيالي معين، لقد ولى عصر / عهد الأفلام الخيالية (على الأقل في الوقت الراهن)، "فرانكشتاين" أصبح خردة هنا، المشهدية في سيمائها الكونية وهي لما تزل تتنامى وتتفعل بأكثر من طريقة، وأغلبيتنا داخلها، هي حقيقة واقعية، بحيث ابتلعت الخيال وقواه الحية، وعمت الكون، ثمة أحادية عنف، أحادية واقع شمولي ليس إلا، كل خيال هو جنحة واقعية تودي بصاحبه. وكأن المطلوب من الواقع إثبات مشروعيته.

الأكثر من هذا، وما يؤكد ما أوردناه هنا، هو أن الحديث عما يجري شمل الجميع بتلذذ غامض مريب، إن عولمة العنف والتعبير عن العنف تتبدى بجلاء مشع.

كأن ثمة لوثة (جينية) تجذرت في الداخل، وبدأ الجميع، وكأنهم، ضد الجميع، العنف هو الذي يقودهم ويستشري فيهم، وسرعة الزمن لافقة من خلال تداعي الأحداث، ولكن ما يقوله ظاهر الأحداث، فالأحداث المفعة لها مسارات ومغذيات أخرى.

السبء هو 11 سبتمبر (أيلول) من العام 2001، هذا هو مطلع الألفية الثالثة يفاجيء الجميع بحدث بدا كارثياً ليس لأن الذين كانوا ضحاياه هم أكثر عدداً، ولا لأن الدمار الحاصل كان أكثر ترويعاً من سواه من حيث المساحة والبنية، ولا لأن الذين قاموا بالفعل المذكور (حتى الآن هم غير معروفين تماماً، نقول، أقول تماماً، لأن فور وقوع الحدث تتصل منه الجميع غالباً وأدانوا مرتكبيه، ولاحقاً برزت سيناريوهات، وربما هي المرة الأولى، وفق الطريقة المذكورة، تمضي فترة زمنية على حدث مأسوي حقاً، دون تسمية رموزه)، وإنما لأن الحدث تميز بفراة مشهد يته، ولأن الذين كانوا ضحاياه، ما كان بإمكان أي كان، توقع ذلك حتى خيالياً، ولأن المكان كان معتبراً شبيه (الأرض الحرام)، ولأن الذين مثلوا المكان المضروب والضحايا والرمز المخترق اعتبروا خارج كل توقع في أن يضربوا:

1- إن انهيار برجين توأمين، لم يكن بفعل زلزال أرضي، وإنما كان بفعل زلزال جوي أفقي، لقد كان هناك مذبة تمت في الفضاء (الجو) في ما يشبه طرفة عين، ذاك الانهيار جاء في غفلة من التاريخ المحروس، والجغرافيا المراقبة، كان عملاً كابوسياً خارج إرادة السيطرة الأمريكية، وانهيارهما لم يتم في صمت، كان مكشوفاً متلفراً، مصوراً بدقة (هكذا تقول الصور)، شوهد من قبل الملايين بالعين المجردة، كان ثمة معجزة مزدوجة اخترقت عنان السماء ولكنها كمعجزة معكوسة

أيضاً سويت بالأرض، لقد استسلمت الهندسة الفضائية لقوى تخريب غاية في التقانة الخفية حتى الآن، قوى عمقت الخيال ومعقوليته المغيبة.

2- لا ينفصل البرجان بوصفهما شاهدين على فداة العمرة الكونية والسوبرمانية الحيوية في ميسها الأمريكي، عن السلطة الرمزية للمجال الحيوي، عن المكان الذي جري تطويبه بوصفه النمط الجغرافي الجليل (التبولوجيا المتفردة) والموقع الكوكبي المعظم (التبولوجيا المنتقاة)، ثمة إحدائيات مواقع، ومواقع اعتبرت عصية على النخر، هكذا تلتقي العمارة المكانية بالإمارة الزمانية.

3- لكن من هم الذين تم استهدافهم، وكيف؟ هنا يمكن التوقف طويلاً. فلأول مرة في التاريخ الأمريكي، ومنذ أكثر من مائتي عام يتم توجيه ضربة فضائية موجعة إلى الرأس scap كما عبّر دريدا عن ذلك، ضربة لا تخل بمفهوم التوازن الاستراتيجي من الداخل، بل تكشف عن وهم التوازن، عن البنية الحكائية الموجهة لهذا / ذاك التوازن المموه، لأول مرة يكتشف الأمريكي أن "رامبو" لا يمكن الرهان عليه إلى الأبد، لن يكون النموذج العصي على المواجهة وتقدان التوازن، على الأقل منذ الحرب العالمية الثانية وفي أمكنة مختلفة من العالم، حيث كان "رامبو" المحارب الرسولي، والطاغية الرسولي، والمملي الأوامر الرسولي في الجهات الأربع، وهاهو خلاف ذلك، وأين؟ في عقر داره، ومن عدو وهمي، (وهو ليس كذلك

بالتأكيد)، متخيل، شبحي، لم تتحدد هويته بدقة حتى الآن، لكن الضربة وجهت إلى الرأس، ونشوة الغفلة الرسولية لم تعد موجودة، والرأس cap يفصح عن كثير من الدلالات، الرأس رئاسة، والرئاسة لسان حال سلطة، والحرب لأول مرة يتم إعلانها بشكل غامض ومن الداخل وليس عبر الحدود، ومن قبل رجال (من هم ؟) تم ابتكارهم، اختلاقهم، وعدة وجهت (من أين؟) تعتبر في غاية النقانة، كل ذلك بدا كالصدمة الكهربائية التي شملت الكيان الأمريكي في عمومها، وانتشر الأثر عالمياً. وأن يكون انتشار الأثر بسبب التضامن أو المسيرة أو التبعية العمياء أو لوجود بروتوكولات معينة فهذا لا يؤخر ولا يقدم شيئاً، إذ المؤكد ذكره هو أن ثمة حدثاً غير مألوف واجه الأغلبية الساحقة، وحتى الآن مدبرو الحدث غير معروفين كما ينبغي، ربما كما هو لسان حال الكثير الكثير من رموز السياسات الأمريكية في تدبير شؤون وتقرير مصائر الآخرين بطرق متحركة، هو أن ثمة حدثاً لا يمكن غض النظر عن نوعيته (فرداته) على صعيد ما يمكن أن يحدث في إثره، وهذا مالا يمكن تجاهله، فحدث يمثل الذي رأيناه: بدماره الحاصل وضحاياه وطريقة التنفيذ والرعب الزلزالي المنتشر جغرافياً ونفسياً وفي دولة كانت تتحرك بمنطق الدولة الاستثناء قوة وجبروتاً، لابد أن يكون التالي على صعيد رد الفعل، على صعيد الرأس المختل توازنه — ربما — متجاوزاً لكل توقع، أو غير مألوف، إذ الحرب التي بدأت من وعلى الداخل وفي

نقطة مكثفة الرموز والدلالات، وترجمت خارجياً حيث لخصت أكثر من ثقافة معمول بها، عمت الجهات الأربع.

ليس هنا من هو مستثنى من (إشاعات) هذه الحرب. فإقل: هذه هي النتيجة الأولى المترتبة على الحدث المتفرد، هكذا جرى رسم الحدث في بقعة نائية (عنا) ولأول مرة، وفي مساحة محدودة، كما لو أنه حرب حقيقية، بل هي كذلك (هذه المرة كان الخطر الخارجي المؤلفم بوصفه مستهدفاً الولايات المتحدة دون سائر العالم خطراً محسوساً)، كما لو أنه (هرمجدون) فعلي، في مكان كان بعيداً عن كل مؤثرات الحروب العالمية الطراز، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية هي التي تتدخل، تكون فعلاً بمثابة "رامبو" المطلوب تدخله في الوقت المناسب، أوفي الوقت المخطط له للتدخل، بطريقة رسولية إنقاذية لها مواصفاتها الخاصة، وهذه المرة تأتي الحرب كما هو "رامبو" المتخيل، المختلق، الرسولي المميز، الكلي القدرة، العالمي الطراز، فجأة ودفعة واحدة من الداخل الأمريكي، حيث الرأس (العالمي) مضروب بقوة، والجميع هنا (شاؤوا ذلك أم أبوا) معنيون به، بموجب حلف، عقد موقع عليه باسم الجميع ورغم أنف الأغلبية.

الكل باتوا داخل حمى وطيس الحرب المتفردة، هكذا يبتكر الحدث المتفرد حرب الكوكبية، والأغلبية هم كومبارس فيها، ومعنيون وملاحقون ومعرضون للاستجواب وللتوقيف والتعنيف في كل مكان.

بات الجميع ممثلي الحدث، محاربين، معلقى أخبار، محلليها، مروّجي دعايات، أبطالها على طريقتهم، كتبة مقالات، وفنانين في السياق، ومستمرئين الحديث فيما جرى ويجري حتى وهم داخل حرب الحدث هنا وهناك، هكذا تتبدى جماليات العنف عالمياً، جماليات الحدث في صيغته الجمعية.

والعالم الذي نشهد تحركاته وإعلامياته ونشاطاته وحوادثه منذ بدء الحدث عالم محارب بامتياز على الجبهات كافة، محارب تتم محاربته بالمقابل، حتى بالنسبة للذين خططوا للحدث مهما كانت جنسياتهم وشهاداتهم ولغاتهم ومستوى ونوعية مواهبهم هم محاربون ومواجهون بعنف الحرب، وبشكل لم يسبق له مثيل، لا مثيل هنا، لأن الحدث تم كما يظهر، ليكون في مستوى صناعة الحدث، أو المجال الحيوي له، أو الرهان المعقود عليه، والدولة التي تمخّضت عنه أو كانت مسرحه الحي والمفاجيء، كل شيء تم الإعداد له في غفلة عن أهله، المسرح الطولاني والصاعد، والنظارة الذين تم إحضارهم أو تعيينهم دون علم منهم وبدء العرض، والذين مثلوا وهم منزوعو الأسماء وأخرجوا العرض، وكتبوا النص الحركي، وكل هؤلاء مجازون غير معروفين كما ينبغي في حده الأدنى. وهذه هي النتيجة الثانية المترتبة على الحدث، وبات الجميع معنيين بدفع الفاتورة وتحمل المسؤولية ليس بالمعنى القضائي المألوف وإنما انطلاقاً من ملابسات الحدث التي لم تتحدد ومن الوقائع الغيبية والنافذة المفعول إلى إشعار

آخر، كون المسؤولية رغم مرور سنوات ثلاث لم تتحدد، إنما هي قابلة للتعقيد والتغيير في بنودها التي لما نزل تتشكل، وهي النتيجة الثالثة المترتبة على الحدث.

جماليات العنف هذه استثنائية كما ذكرت، ولهذا صار بإمكان اللاوعي إبراز مكبوته أكثر من أي وقت مضى، أعني أن ما يجري الآن هو من تبعات جماليات العنف حيث تداعياتها تتنوع هنا وهناك.

مرآة الحدث

لا يتم فهم الحدث إلا في سلسلة مفارقاته الجغرافية والسياسية والاجتماعية والثقافية لكن شريطة البقاء في حيز حيثياته، إذ جمهرة الإعلاميات الكبرى والتصورات في منحائها ومرعاها الأيديولوجيين قد تلعبان دوراً كبيراً في تشويه أو تمويه الحدث بحيث يكون هو ولا يكون هو، وهذا يضاعف من حقيقة ما جعله الحدث (معرفاً به) ومن خلال ما هو مرسوم ومؤسس بأكثر من معنى عنه.

في إطار التاريخ الأمريكي المعاصر ومن خلال مقوماته، ربما كان الحدث المأتي عليه، بمثابة نهاية الفلسفة الذرائعية الأمريكية بوصفها الحافة التي يجب أن نتوقف عندها وإلا فلسوف يكون هناك انهيار من نوع آخر، سقوط في هاوية التاريخ، وما هو جار الآن يفصح عن هذه الهاوية وهي تتسع (هنا رورتي يبزديوي، كما سنرى، المرآوي يتفوق على البراغماتيكي المفرط واقعية).

بالرجوع إلى الوراء، يمكن تتبع مفهوم الحدث الحاصل في البنية التركيبية للتاريخ الأمريكي.

كبقية التواريخ لأغلبية شعوب الأرض ودولها، لا يوجد ما يسمى بـ (التاريخ الأمريكي)، هذا التاريخ هو قلقة تاريخ، صنعة لاحقة على تاريخ هو الأصل، ولكنه - قطعاً - ليس التاريخ الأمريكي، إنما تاريخ المايا أو الأزتك، أو الهنود الحمر، أو الهنود، هو تاريخ لم يقد على أنقاض تاريخ هؤلاء والموغل في القدم، إنما بعد تحويل الشعب التاريخي والجغرافي العتيق والعريق دون تسميته، بعد محاولة التمكن منه من النواحي كافة (قراءة أعمال إيف تيريو ترينا جوانب حية من ذلك، وتأمل أيضاً الأفلام المخصصة في كيفية استئصال شأفتهم، وليس فلم "الرقص مع الذئاب" هو المثال الوحيد، وأفلام الكابوي هي النموذج الحي والمضاد لما كان الهنود يفكرون به وفيه، هي أفلام أمريكية بامتياز)، كان لابد من إيجاد المنعطفات الكبرى في التاريخ لتحويله وإظهاره التاريخ الذي لا سابق له، هكذا ودفعة واحدة وكما في مفهوم الطفرة / النقلة الداروينية السبنسرية، يتبدى تاريخ الهنود الحمر التاريخ المعرض للاختراق والانسحاق والخسف ومن خلال ممثليه ومجسديه، ويتم التدوين لمرحلة تاريخية جديدة، سمها بدء عصر النهضة الأوروبية، أواد خول في التاريخ الوسيط، أو انعطافاً في التاريخ أوروبياً، بحيث يبرز الغرب قرين الليل دلاليأ مهوى الشمس، والشرق الدال باسمه على

الحضور الشمسي منزوع الشروق أو الحركة، وذلك عبر الغزو الأوروبي للعالم القديم (هكذا تشير التسمية بالذات إلى كارثية الحدث، إلى أن العالم الذي كان وعرف به مجرد عالم فقط وليس جغرافيا بشرية، جغرافيا شعوب وأثنيات أكثر من كل الجغرافيا الأوروبية، هو مجرد عالم، عالم ماذا؟ لا إضافة هنا، الصفة هي التي تفي بالغرض، وما تبقى — وهو المهم والأهم — طيَّ العبارة العبارة، يغدو القديم من القدم منزوع الصلاحية مستوجباً للملاء والامتلاء والسكنى.

يتبدى الاسم الصاعد تاريخياً الاسم المنتظر لقارة بأكملها جرّدت من جنسيتها، الاسم (أمريكو) ومنذ عام 1492، أو منذ نهاية القرن الخامس عشر بالتسمية التاريخية الأوروبية وليس الهندية أو غيرها، شخص واحد، إسباني يسقط اسمه على القارة تلك، ويتحول العالم القديم دفعة واحدة، كما لو أنها شهادة الميلاد من العدم، إلى العالم الجديد، ليتوافق الاسم مع شرف التسمية المعمّدة، ويغدوا لاكتشاف الجغرافي إتلافاً للجغرافيا والتاريخ الأهليين أو المحليين، وكان المفترض أن يكون المكتشف الأوروبي لاحقاً وطارئاً هو أصل الاكتشاف هنا لا العكس، أن يكون كولومبس العالم الجديد لعالم قديم، ممثلاً لعالم يبحث عن الضوء في عالم يفيض به، هو حدث لازلنا مأخوذين به، أو نحتفي به، عندما نتحدث عن الاكتشافات الجغرافية دون التدقيق في المفهوم ورعب المعنى أو شرنقة التسمية، يكون كولومبس نموذج الجغرافي المغامر،

حيث كنا نقرأ عنه في المنهاج المدرسي، وهو يقودنا إلى عالم ما وراء الظلمات، وتتوفر أنفاسنا وهو يتقدم من العالم (القديم) وكأنه عالم الأشباح والكائنات المسوخة، مجرداً عن أي هوى، نتابع مغامرات كولومبس الرسولية في عالم الهمج.

كأن دخول (المكتشف) هو إدخال العالم غيرا لمسمى في التاريخ، وقد تأخر تعميده الأيديولوجي، ويتحقق ذلك بجعل الأسماء والأمكنة ملحقة بالاسم الجديد وبشكل فظائعي، وكأن هناك شعائر مطلوبة ممارستها قروناً من الزمن، أعني من الإبادة، كما يعلمنا بذلك، وبحرفة الجغرافي البصير والمؤرخ المتنور على طريقته ترفيتان تودوروف" في كتابه الأثير (فتح أمريكا: مسألة الآخر)!

الحدث هو حدث اكتشاف، اكتشاف المكتشف، المكتشف الذي يتطلب منه تقديم أوراق اعتماده للذي جعله موضوعاً له دون تسميته إلا بوصفه الملحق باللا مسمى، بما هو مجازي، جغرافي غامض، فيكون الحدث في حد ذاته جديراً بالمساءلة والاستتطاق، طالما الهندي المنزوع الاسم، بكل رحابة قارته وعراقة اسمها يغدو موضوع اكتشاف وكأنه بدعة، أو لقيط تاريخي على قارعة الجغرافيا البشرية، ويتجلى الآخر فعلاً، وهو الأوروبي المفوّض بالتمثيل والحديث عما اكتشفه.

هذا ليس لا معقولاً، ربما هو لا معقول العقل وقد تخلى عن اسمه، ولكنه العقل الذي ينقسم على نفسه ويحيل المرفوض فيه (هنا يكون الآخر الهندي بكل زخمه وثقافته وجغرافيته) إلى

المادة المنصاعة له، حيث المعرفة لا تكون قوة وسلطة وإنشاء، وإنما ما يجعلها ويبقيها هكذا، أعني وجود القوة التي تحتكر اسمها بإطلاق وبامتياز ذاتي، وتعقلن مفهومها، وتحصن علامتها الفارقة، وتبتكر مفرداتها الخاصة بها، وتؤسس سلطتها ولها ومعتقداتها وطوقسها وأصول نسكها وطريقة حياتها وحتى موتها وتقواها في عالم هو محمية خاصة باسمها، وخارجها يكون السديم.

لا جدوى من التدقيق في الحدث وماهيته (مصادقته)، لقد تم تدوين الحدث بوصفه حدثاً، وعلى هذا الأساس يمكن متابعة ما يحدث أو يتراءى بصور شتى في المحيط الكوني / الكوكبي، هنا لم يعد بالإمكان التوقف عند كتاب مشاكس، ولو أنه صوت مجلجل، وأعني به (الخدعة المرعبة) أو (الفضيحة) لـ "تيري ميسان" وهو ينفي الحدث كحقيقة بذكاء متفرد، ولكن الحدث الذي تم التخطيط له، الذي كان يتوقع أحداثاً هي عابرة لا تشكل عبئاً على المخطط له مسبقاً — ربما — صار له مفعوله وأدبياته، كما يعلم القاصي والداني، ففي الجهات الأربع يتم تناول الحدث والانشغال به باعتباره الحدث الاستثنائي الذي يعني الجميع، ولم يعد هناك بالإمكان الرجوع إلى الوراء.

أمريكا القارة، أمريكا العالم الجديد، تشكلت مخلفات (نجومية / كوكبية) ولكن قدوماً من أوروبا: الاكتشاف الغزو، السيطرة، فرادة القوة الكوكبية هذه المرة، أمريكا الاسم

المستعمر من ذاته وبذاته، والمنقلب على تاريخ صنعه وأوجده، والمتحرر منه، والمختلف كلياً عن بقية الأسماء في منحائها القومي، أو الأثني، فهي التي تشكلت حصيلة أوروبية، ومن ثم بمزيد من الضحايا من الداخل (الهنود الحمر) والخارج، كأجساد للعمل وللسخرة وللمتعة (الزنج)، حيث طردت مستعمراتها وبقي المستعمرون (يا لها من مفارقة!!)، إذ أن طرد الأسبان والفرنسيين والإنكليز وغيرهم، لم يكن بمثابة إعلان استقلال شعب أو دولة أو أرض، إنما تحويل الغازي إلى مستعمرو المستعمر إلى أصلائي وممثل للأصلائي، ليس الهنود هم الذين تحرروا ولا أرضهم هي التي حملت أسماءهم، ولا دولتهم رجعت وهي ممثلة من قبلهم، لقد أمسوا في الحد الأقصى وهم في حدهم الأدنى في حضورهم الجغرافي، العددي، الرمزي، أمريكيين بشرف الانتماء طبعاً والولاء قسراً، حيث برزت أمريكا اسماً لقارة، وربما، وكما ومألوف، الاسم الأعظم لدولة عظمى، تتجاوزا لقارة هذه التي تتلخص فيها وبها غالباً، وأعني: الولايات المتحدة الأمريكية (هنا يمكن الاستئناس بكتاب "منير العكش": حق التضحية بالآخر "أميركا والإبادة الجماعية")، باتت أمريكا الواقع والحقيقة المفروضة على الواقع، حيث خرج الأوروبيون مدحورين، وبقيت خلاصتهم الأصل العائم تاريخياً، والأصل المتمرد على الأصل، تمرد الابن على الأب، بوصف الابن مقرر مصير الأب هنا.

هذا استمرار للحدث الذي تم تفعيله وتسجيله، الاسم الشخصي المتفرد الذي أطلق على قارة، واعتلى التاريخ، ليغدو الاسم: القومية، قومية ما بعد القومية، قومية الدولة التي تعيش فوضى القوميات في العمق. أليست أمريكا هي القارة الوحيدة عالمياً، والدولة الوحيدة كونياً في ارتباطها بنسب مفارق لها؟

لا تقوم أمريكا على بنية قومية، إنها ما تزال تسعى إلى التشكل، ولهذا فهي تسعى بالمقابل إلى تقويض كل البنى القومية ذات الحضور في التاريخ، عبر انتقامات متتالية ومختلفة، وعلى طريقتها:

1- ثمة انتقام من الأب المتعدد القوميات (في أوروبا)، فهي — بالمعنى الفرويدي تضرر الكراهية للأب التليد، وفي الوقت نفسه تحاول الحلول محله، كما في سعيها المحموم إلى تمثيل أوروبا قاطبة، عبر إعادة تفكيكها لجعلها اللا قومية، وتراكيبها لجعلها ملحقة بها بوصفها القومية المولفة.

2- إن قتل الأب القومي لا يضع حداً لحقد الابن، الذي لا يخفي كراهية الأب، لأنه لا يستطيع التخلص من كابوس البنوة، لأن الأب تسمية منيعة عليه، على الأقل من منظور نسبي، فثمة هجنة طاغية هنا.

3- الابن المتكون من مجموعة آباء، يوجد الحجج والذرائع المختلفة وفي كل وقت، لمواجهة الجميع، وضرب الجميع بالجميع. فأمريكا مفتوحة لأي كان، وبوسع أي كان أن يكون

أو يصبح أمريكياً، حيث الأمريكي لا ينخرط في حيز. قومية معينة، بقدر ما يشعر أنه مشارك أو مساهم فيها، ويمكنه الانصهار فيها بسهولة، غير أن الذي يبقى هنا هو الصفة العنفية المميز لهذا الانتماء من حيث صراع الهويات وتنازعها حول أي منها يمكن للانتماء أن يحقق أماناً أكثر، فالآباء حاضرون في الذاكرة الجمعية المولفة والحديثة العهد، ولهذا يبرز العنف في طابعه الأمريكي المشرعن متميزاً.

وفي ضوء ما تقدم يكون الحدث المتشكل أمريكياً، مشحوناً بالعنف الذي يشمل الجميع. ولكنه العنف الذي كان منذ القدم، العنف الذي يؤكد نسابته الماورائية كما تعلمنا ذلك ونحن صغار، ونحن على مقاعد الدراسة، هو الذي دشّن تاريخ الإنسان من لحظة خروجه من الجنة، وصار علامة فارقة له، عبر مفهوم (العدو)، هذا المفهوم الذي امتزج بالتقافات، وتسلسل إلى قلب الحضارات، وتداخل مع أشكال القيم الاجتماعية والتربوية والجمالية، فهو ليس وليد عصرنا الحديث، ليس حديث العهد، دون أن يعني تبريراً للعنف المأسوس والمدار والمحتكر أمريكياً هنا.

إلا أنه لا يبقى كما كان، مثلما أن القيم المتداولة والمساوقة والمعرّزة فلسفياً وأدبياً تختلف في أدائها الوظيفية والغائية، ثمة تداخلات وتفاوتات، ولكنه موجود، وهو الأكثر تنوعاً وتسارع وتيرة اليوم.

يمكن هنا الحديث عن الحدث كما تجلى في وجوه عدة له، ولكن دون إمكانية استقصائه وسبر قاعه، فهو عصي على الانكشاف والبداهة ولغة المنطق، حيث يمتزج بالرغبة ولكنه يتجاوزها، ويقيم في العقل ولكنه ليس رهينتها، ويتمفصل في المقومات الثقافية ولكنه ليس عياناً ليتحدد كمياً ولا ذهنياً ليحاط به مفهوماً، إنه يغتني ويتفرع ويتأصل دون إقامة واقعية حيث يفيض على كل معنى، والمفصح عن كل ذلك هو لحدث نفسه في طابع المفاجأة المميز له، في حركية (الما لا نعلمه باستمرار في مواقف مختلف في كل آن وحين)، ولعل كثافة المعلومات والتصورات والأفكار والطروحات والفرضيات وتسارع نبض العصر الذي وضع الجميع رهن الإقامة الجبرية بشكل ما حتى وهم متباعدون عن بعضهم بعضاً جغرافياً وألسنياً وثقافياً ومن خلال مفردة اكتسبت طابعاً كونياً هي (الإرهاب)، هي التي تؤكد هذا المنحى، لقد حولت المفردة هذه، إنسان اليوم إلى كائن سياسي، ولكن ليس لأنه يريد الاشتغال بالسياسة، وإنما لأن السياسة هي التي تستهلكه على أكثر من صعيد.

إن كل ما قيل هذا الذي تعجز ملايين الصفحات عن حمله، ضاعف من حدة العنف، ومن بروز العنف، وكأن الحديث عما جرى، والتتقيب في حركية الحدث بأبعاده المختلفة يسربان المزيد من العنف إلى الداخل، كما يبقى الخارج مضخة كونية للعنف، وينوع في المخاوف المرتبطة بالإرهاب وأفقه.

يبدو اللامنظور، وهو طي اللامدرك أو يعيش في موازاة اللاشعور، قيمة مرآوية بامتياز، حيث الصور متعددة والسطوح المرآوية لا تحصى، والمواقع الثقافية التي ترصد ما يجري لا تحيط بالتحديات الواقعة (وهنا يمكن التوقف عند الأمريكي "ريتشارد رورتي" صاحب: الإنسان المرآوي أو المنعكس، كتابه المميز الذي يفصح عن أن العقل المميز اليوم بمفاهيمه لم يعد قادراً على ملاحقة المستجدات، فثمة الأنا وحدية solipsisme تشكل علامة فارقة تهدد العقل بما هو كارثي إن لم يسع إلى المزيد من التحرر من مفاهيمه وأدواته المعتمدة، وهي محاولة ليست جديدة بل وجدت منذ القدم، حيث مقولة (الإنسان في أزمة وكيف يمكنه تجاوزها)، شغلت البشرية باستمرار، وواجهت الإنسان أكثر نظراً للمخاطر المحدقة به منذ نصف قرن ونيف، كما تعلمنا أدبيات المدرسة النقدية وغيرها).

ولعل الثقافة التي ضاعفت من قوى الإنسان، بحيث بات بالإمكان الحديث عنه من خلالها بأنه السوبرمان الذي كان بطل الحكايات الخيالية وهو ينتقل من مكان لآخر بسهولة فائقة، ويحصل معلوماته هكذا، هي التي أوجدت كوارثها وحكاياتها إذ يمكن الحديث عن الإنسان المذرور بالمقابل.

ولكن حديثاً من النوع هذا لا يبعدنا (وعليه ألا يبعدنا) عن الاختلافات والصراعات القيمية وكيفية تجسيدها أو التعبير عنها ومن هم ممثلوها ومن هم ضحاياها في عالم اليوم، كما

يعلّمنا الحدث ذاته، وأمريكا انطلاقاً من خاصية القوة والنفوذ تبّدت مسرح قيم متعارضة وباتت الدولة التي لا تلتزم بمفهوم الدولة بالمعنى الحدودي وما تعنيه قداسة القيم الحدودية ومشروعيتها، ثمة نزع للقداسة عن العالم هنا le desechantemet du monde كما يقال، حيث لا حدود محصنة في عالم اليوم، تفرض القدسية نفسها أو تتنحى أو تتغيب من خلال القوة الممثلة على أرض الواقع غالباً، ولعل الإرهاب بكامل قيافته المولفة ورهبة المدلولات فيه يعبر عن ذلك، إذ يمكن أن يكون صفة لأي كان في أي مكان في العالم وفي غفلة منه، ويتم البحث عنه، أو يقبض عليه دون إعلام منه.

ليس هذا هو الواقع

أن تكون أمريكا (كما نلفظها هكذا) هي ممثلة الحدث، وفي الواجهة الإعلامية، لا يعني أنها تمثل الواجهة بكل ما تعنيه هذه المفردة من ظاهرائية وسطحية المعنى، بالعكس، على الحدث الذي يربطنا بالواجهة تلك على طريقة (هذه هي أمريكا)، ومن خلال ما جرى ويجري حتى الآن، أن يبعدنا عن الظاهري في الأشياء أو الموضوعات التي يتم تناولها ومناقشتها وعنوانتها بما يخدم ثقافة الواجهة وهدفية الواجهة وقيم الواجهة الخفية حيث الاستدراج إلى الداخل هو المخطط له، كون الكم الهائل من الإعلاميات والمبتكرات اللفظية لغالبية

مُتَقَفِينَا ومنظرينا في هذا المجال وعبر المنابر المتلفزة خصوصاً والمؤلفات التي باتت في سعي محموم إلى إثبات جدارتها العصرية، وهي تتناول الحدث بوجوهه المختلفة ومن منظور تأمري فقط، يطيح بخاصية الحدث نفسه، ويصعد في الأزمة الحاصلة، وهي التي تتجاوز كل الطرق التقليدية في مقاربة المستجدات وحيثياتها.

يمكن أن أتحدث كالكثيرين مثلي من المعنيين أصلاً بما هو فكري وثقافي عام، وكحيوان أنفوميديا سي (إعلامي سياسي)، عن أمريكا بوصفها راعية الإرهاب، ودولة الكابوي، وأصل البلاء العالمي، والشر المحض بتعبير أحدهم.

هذه ليست أمريكا. لو كان الأمر كذلك لما غدت في الواقع بمثابة (الأنا الأعلى) لغالبية الأوروبيين، لما بقيت كما هي، لما استطاعت الصمود. فدولة تستطيع المزج بين الواقع والخيال وتحيل الخيالي إلى واقعي، وتقرر مصير الواقع بوصفه جناحة خيال، وتغير في المصائر والأفكار كثيراً، تتطلب المزيد من الرؤى ودقة المقاربة إذا رمنا الحقيقة من جوانب مختلفة وانطلاقاً من (الحدث) الأمريكي نفسه.

لقد أصبحت أمريكا واقعاً. إنها الدولة الوحيدة في العالم التي سعت منذ قرون عدة فقط في أن تتشكل وتشكل قوتها على أنقاض دول مستعمرة، هي دولة حديثة العهد، دولة عن ماض لها، وتؤسس لأساطيرها لأثارها في المستقبل خلاف الدول الأخرى، دولة الابن (كما ذكرنا ذلك) التي تسعى

باضطراد إلى إثبات سلطتها وجموح القوة فيها بطريقتها الخاصة، إنها خبرة أسلافها من المستعمرين المحنكين الذين أعطوها الاسم وهي التي جذّرت في الواقع، ووضعوا إحداثيات الحادثة ولكنها استثمرتها وعمقتها وسعت إلى ما بعد الحادثة، لا بل إن (المابيديات) تجذرت فيها أكثر من غيرها، نعم، بالوسع الحديث عنها بوصفها دولة الكاوبوي ولكن الآخرين هم الذين يعتقدونها كذلك ويستمرئون لعبتها، وبوصفها دولة الابن، ولكنه الابن المقاوم للأب والفارض سلطته عليه والمتحكم فيه كثيراً إنما دون قتله، فثمة حكمة يعيها الابن ويدركها الأب نفسه، وهو ضرورة كل منهما للآخر، ولأول مرة — كما أعتقد — لا تبدو نظرية فرويد صائبة هنا، حيث الابن حتى وهو شب عن الطوق وأصبح رجلاً لا يسمى الأب أباً، إنما يستدرجه إلى عالمه دون إضعافه، والأب نفسه مأخوذ بفداة الابن، وكل ذلك يبقي الابن في حالة فتوة مستمرة ولزمن لا يمكن تحديده في العمق، والحدث مميز في هذا المنحى الذي يقودنا إلى عالم الابن الراشد لا الواجهة، الابن الحدث الطليق دون الانبهار بقوته لمعرفته أكثر.

أمريكا لم تكن بول كيندي أو فوكوياما أو هنتنغتون، لقد كانت وهي أمريكا والت ويتمان ووليم فولكنر واليكس هالي وتوني موريسون وبول استر وكين كيسي ونعوم تشومسكي، هي ليست أمريكا "رامبو" فقط، ليست أفلام العنف والخطرة والاستعلاء، يمكن هنا متابعتها في (الغريزة، وإصلاح سجن،

والإعصار، ووداعاً أمريكاً، والقيامة الآن، والرقص مع الذئب.. الخ)، كل ذلك يكشف عن البعد الثقافي لما نحن بصدده، وحتى لا نستحيل مفهوماً واجهاتياً. لنتوقف قليلاً عند مفهوم الحدث كما يتجاوز خاصية السطح أو الواجهة.

لأن الحدث الذي تم، كان مكان حدوثه في موقع أقرب إلى الاستحالة منها إلى الواقع في الوقوع، ولأنه أثار وما زال يثير الكثير من التساؤلات ويستنزف المتخيل نفسه، فإن اللغة تتنوع في تعقيداتها وموضوعاتها، وهذا ما يمكن ملاحظته عند "جاك دريدا" خصوصاً وهو يركز على الحدث.

ما الذي يتلمسه فيه، كيف هو الحدث événement. الكيفية هنا ليست سؤالاً إنما محاولة مقاربة النوعية الخاصة للحدث. تبرز الفلسفة بمثابة المحاولة القصوى للعقل التفكيكي في التأمل والتحليل.

ثمة بلبل في الإنشاء الحدثي، ربما تجاوباً افتراضياً مع الموضوع نفسه (إن الحدث يكمن قبل كل شيء في ألا أفهم. فهو يتألف من أنني لا أفهم، بمعنى أنني لا أفهم وأنني لا أفهم بشكل أولي، أي حقيقة أنني لا أفهم، أي عدم فهمي) لماذا هذا التعقيد في الصياغة؟ أهو تعقيد حقاً؟ (ولكن ولكي أستطيع توضيح أن ما حدث هو أي شيء باستثناء كونه مجرداً فكرياً وأن أفق عدم المعرفة به هذا أو غياب أفق المعرفة (أي عدم القدرة على استيعابه ومعرفته وعدم القدرة على التعرف عليه وتحديد عدم القدرة على تسميته ووصفه والتنبؤ به) يحتم

علي أن أتبحر أكثر في الحديث عنه وأن أتحديث عنه تحديداً بطريقة ملموسة أكثر) كل ذلك من موقع المغامرة، حيث دريدا لا ينسى التركيز على نقطة جوهرية ذات أكثر من إحالة مرجعية: دينية وسياسية وأخلاقية، هي في عبارة (الدولة المارقة states of concern)، هي تسمية ذات مغزى استعملت كثيراً، وألصقت بـ (أمريكا)، التي لا يخل ساستها في استثمار ما هو ديني وحتى طقوسي كما في عبارة (فليبارك الرب أمريكا God bless America)، كل ذلك يرسم صورة الكارثة المستقبلية، فما حدث هو في حقيقة أمره أكثر من حدث يجري في مكان لا يحتفى به كقيمة، وفي موقع لا تعطى الأهمية التي أعطيت لموقعه (فالصدمة هي إذن نتاج المستقبل مما هو أشد سوء وهي ليست مجرد نتاج اعتداء مضى وانتهى...الخ) ويمكن المضي مطوّلاً في صياغات من هذا النوع (حيث يمكن مراجعة ذلك في كتابه: ما الذي في حدث 11 سبتمبر؟ أو في مقاله: ما هي "الدولة المارقة؟")، فنحن — وخوفاً من الماضي — نحرص على المستقبل، إنه الخوف من أن يولدا لحدث أحداثاً تفوق الخيال، لأن المعمورة باتت ثقيلة بما عليها من تقانة تهدد بالدمار الشامل، وقد ضاقت على أهلها، وليس الإرهاب الذي بات من كثرة الاستعمال مألوفاً، والذي يهدد الجميع، ولا براءة ذمة لأحد هنا، يفصح عن الضخ العجيب لمشاهد العنف هنا وهناك.

الحدث لصيق الحدث، لصيق الفعل الذي يتواصل في إحداث أثره، لكنه الحدث الذي مازال ينمو ويكون مفهومه كحدث (بالمعنى البيولوجي)، وفي الوقت نفسه يتنامى وسط الجميع وكأنه يعنيهم جميعاً، ولهذا لا إمكانية للإحاطة به، لمعرفة ما سيكون مآلات، كونه يتحرك صوب المستقبل، والأحداث التي جرت في السنوات الثلاث الأخيرة حتى الآن تكاد تكون الإطالة الأولى لذيول الحدث لقانون دفعه، وأن نكون مستقبليين بإفراط، فمن فرط خوفنا من مهددات الحدث. أهى مبالغة؟

لسنا بصدد نهاية العالم Apocalypse حتى نندفع في الحديث بوازع ديني مدثرين بالرؤيا الكونية للحدث ولما يمكن أن يحدث على أعقابها، فنتملكنا المشاعر والاستلهايات مما لم نتوقعه بعد، وإلا فإن الحدث هو حقاً نهاية التاريخ هذه المرة، وأن الصدمة الحديثة سوف تعم العالم بنوع من الانفجار الميتانوي الكارثي، ولسوف نشهد في هذه قيامة المسيح الدجال، إنما يعنينا الحدث في مفعلاته الكوكبية أو العالمية، حيث لم يعد بإمكان أي كان أن ينجو من لومة تهمة تلصق به، وهو السبب الكوني للحدث، لم تعد الحدود موجودة كسيادات متباعدة ومتميزة، بقدر ما صارت الأعلام علامات فارقة لعبور الحدود وليس لتجنبها، فحنى عهد قريب، كان بالإمكان التواري عن الأنظار والاختباء في مكان قصي، مهما كان الجرم، أما اليوم فإن مقولة الإرهاب وحدث العالم أو صيرته

بين فكي كماشة، وهذه من المفارقات الكبرى واللافتة في التاريخ، مقولة الإرهابي تخترق الحدودويات لها ممثلوها حيث لا يحصون عدداً، والإرهاب هنا ليس رهين الخوف فقط، أو بعث الرعب، وإنما يتضمن مسحة من السحر وإغراء الاسم، الإرهابي هو مرهوب الجانب ولكنه من نوع ساحر، إنه لا ينفر وإنما يستقطب، فهو ثنائي المعنى هنا، والبشر يتوحدون رغم أنهم يتنافرون من الداخل ولكن المصير الكوني، أو الخوف على المصير البشري هو الذي يوحدهم مشاعرياً.

هنا تكمن البلبلة ويتبدى التبلبل بسبب حداثة الحدث، جدته الطارئة، حيث يصعب الجزم بمصادقية أي مقولة أو تفسير لإبداء شعور براحة معينة، لأن الحدث مازال يفعل سرياليته، أعني واقعيته، إذ لم يعد العمل بمنظومة تفكيرية قائمة على ما هو عياني وتسلسلي منطقي ممكناً، والواقع لم يعداً لمسمى واقعاً كما يرتئيه عقلنا المؤطر بمعارفه المتوارثة أو المتداولة، الحدث لا يمكن مقاربته هكذا، والمفاجأة الصاعقة هي التي تشي بذلك، وهذا يستدعي الخروج إلى عالم الحدث بالمفردات والتصورات الحافة به، والبنية الرمزية التي يقوم عليها وملابساته تلك التي تتجذر في المتخيل، أتذكر ما جاء قبل عقدين من الزمن على لسان "ماكرتومبسون" في رواية (البابا الأخضر) للغواتيمالي "استورياس" (أنا ماكرتومبسون.. البابا الأخضر..نفوذي خارج الزمن وفي الزمن..خارج الواقع وفي الواقع..)، هو ذاك الواقع غير المعاش الذي يحاصر المؤلف،

فلا بد من التحول إذًا، حيث العنف ينوع مفاهيمه ومشهدياته، ويهدد عالماً بأكمله بموت تاريخ لابد من نعيه رمزياً، هو تاريخ العقل الذي نتناقش به، وننطلق من تعريفاته التليدة، حيث تاريخ جديد تشهده، إذ أن العنف الذي نعايشه وفي ظل الحدث الحاصل في مستواه، وفي عالم العولمة، حيث صار بالإمكان الحديث عن الحادثة وما بعد الحادثة، (عن البعدية هذه) باعتبارها تملكنا بمؤثراتها، رغم أننا مازلنا نحت في مفاهيم وتصورات تخص العقل في سياقه ما قبل الحداثي، لسنا في الحالة بصدد حرق المراحل، وإنما في معمعان المفاهيم الطارئة التي تستوجب التكيف معها طالما أنها تدهمنا ولامناس من التوجه نحوها، وهنا، وأكثر من أي وقت، تبدو تاريخانية historicisme عبد الله العروي في محلها، إذ لم يعد وارداً الحديث في الخصوصية والتمايز، ولا بد من الارتقاء إلى ثقافة الحدث، وتقبل كلما أوجده هذا المفهوم الاستثنائي من تصورات تدشن قرننا الجديد.

وأنوه بالأهمية الفائقة القيمة وقوة الاستبصار لمقال "امبرتويكو" الإيطالي المتعدد المواهب. إنما أثاره في (سيناريوهات قيامية للحرب الشاملة) والمنشور مترجماً في ملحق (نوافذ) الصادر عن صحيفة (المستقبل) اللبنانية 18 — 1 ملحق — 2001، والعنوان نفسه قياماتي، ولكن ثمة رؤية بانورامية مكثفة للحدث، ملخص المقال هو هذا الصراع المستفحل بطابعه الجديد، والعنف الي يولده عالمياً بين الألسن والشعوب

والأعراق والأديان والمذاهب، فالحدث أعاد حمى الدين إلى الأذهان، وبات الدين المميز بين الشعوب وللتفريق الحضاري بين الأمم، وبات أي انفجار في مكان، كفيلاً بتحول المكان كله إلى مستودع بارود، حيث توجيه التهمة كاف لتجيش المشاعر والأفكار والمواجهات الدامية، وهذا ما أكدته الحدث، وما يهددنا أكثر في المستقبل الدين الذي عسكر في النفوس والرؤوس هنا وهناك (ما الذي سنفعله بالمقابل في بلداننا؟ إذا ما استفحل النزاع وانهارت ناطحتا سحب أو ثلاث أخريات، أو كنيسة القديس بطرس ذاتها، ننطلق في تعقي المسلمين، ضرب من ليك القديس بارتولوميو أو ساعات العصر الصقلية: فيلقى القبض على كل ذي شاربين، أو على كل بشرة غير ناصعة البياض، ويذبح. سيتعلق الأمر بإبادة الملايين ولكن الجموع ستتولى الأمر دون إزعاج القوات المسلحة الأخطر من كل ذلك حين يتعلق الصراع الفالقي الحاسم والفجائي بالتصنيفات وفق التصنيفات المذهبية والعرقية وفي بلدان تذخر بها، وليس بين دول متوا جهة (الغرب (وأمركا بالخصوص) أسس قوته وازدهاره على استقبال أناس من كل الأعراق ومن كل الألوان. ماذا سيبقى من ذلك "المرجل الصاهر" في حال نشوب مواجهة شاملة؟).

إنه الرهان الأكبر على الإنسان كمصير نهائي وكمعنى أخير، وهو تحدّ يواجهه الإنسان الكوني والذي يتحرك في منحى تذرير الإنسان من الجهات كافة، رغم أن القوميات مع

أديان والمذاهب التحدي العكسي والذي يتطلب من الإنسان اليوم رؤية المختلفات بوصفها الانطلاقة نحو إنسان جديد وعالم جديد، وفي الوقت الذي بات الحديث عن الهندسة الوراثية وفضائيات المعرفة والتكنولوجيا لافتاً النظر إلى الانتصار الكبير الذي تحقق كونياً، ولكنه الانتصار الذي ينفجر بالانمحاق الكوني، وعبر مفهوم كراهية الأجانب Xenophobia.

ولعل التركيز على ما هو قياماتي لازال يمتح من بقايا الذاكرة الجمعية التي تقود البشرية إلى نهاية محتومة لبداية معلومة ماورائياً، خصوصاً مع بداية كل قرن جديد أو ألفية جديدة، ولكن عالم اليوم هو عالم جامع حقاً كما يقول "انطوني جيدنز" ومن خلال عنوان كتابه والذي يفتتحه هكذا ("إن العالم على عجل، وإنه ليقترّب من نهايته". هكذا تكلم رئيس الأساقفة، وولفستان، في خطبة ألقاها في مدينة يورك في العام 1014)، فالماضي يهدد المستقبل، ولكنه في الوقت الراهن لا يهدده من خلال معتقداته المتوارثة، وإنما من العنف المدعّم بكل ما من شأنه تعريض كوكبنا لدمار ساحق ماحق.

ولعل ما يجري بذريعة محاربة الإرهاب، ومواجهة الإرهاب، وباسم الإرهاب، ورداً على الإرهاب، من حوادث قتل واغتيالات وتفجيرات وتصفيات دموية وأعمال انتحارية.. الخ، يعطي الصورة الأسوأ عن العولمة Mondialisation أو glocalisation، ويحيل هذه إلى عالم يصعب الإقامة فيه

والاستقرار الآمن، وبيث وإيجاد كل أشكال الهمجية أو ردود الأفعال المفاجئة والأصوليات القلاعية التي تمارس تفتيتاً مروّعاً للعالم الذي يطنب في مدح انتصاراته العقلية، في محاولة للحفاظ عليه.

وما نشهده ومن خلال القوى التي تمارس تقييمات باسم الحفاظ على سلامة كوكبنا وجنسنا البشري، وكيفية اختزال القيم البشرية هذه، حيث المعتبرون ضعفاء باتوا في مواجهة الاحتمال الأخير واللجوء إليه وهو التعبير عن أنفسهم ولو أن ذلك يتم بصورة مأسوية لافتة، لا ينتظرون بها رد فعل الآخر أو مفعّل الإرهاب ومحدده أو جوابه، إذ التعبير ذاك يتم بأعمال استشهادية أو انتحارية.

كل ذلك يضع القوى المتنفذة قبل غيرها في مواجهة مفاهيمها العقلية وكيفية تقييم الآخرين: أمماً وشعوباً وأفراداً، خشية الانفجار الكبير، وهذه استحالة، فالحرب الشاملة، كما يقول إيكو في نهاية مقاله، في عصر العولمة مستحيلة (أي أنها قد تكون هزيمة الجميع). هذه الـ "قد" تفتح أكثر من ثغرة في الجدار الذي يحمي من هبوب ريح الحرب الكونية، وتقتشي العنف هنا وهناك.

تحت قبة العنف العالمي

لا يمكن لأي كان أن يقول أنه يعيش بمعزل عما يجري كونياً. فالعولمة بتصوراتها ومشهدياتها المتلفة سواء بدت عولمة البربرية كما يقال أو الوحشية أو قانون الأقوى أو

توحيد العالم بصيغ متفاوتة، لا تعفي أحداً من هم التفكير بتداعياتها، ويعني هذا أن مفرداتها المتعلقة بالحادثة وما بعد الحادثة والدلالات المسوقة عبرها والعلامات الفارقة للإنسان الاستهلاكي، ولأهم وشعوب تخشى على نفسها من التفكك وفقدان الهوية.. هي مفردات لا يمكن التغاضي عنه، لأنها معاشة ولو بدرجات متفاوتة، ونحن من بين هؤلاء، إذ لسانا خارج مؤثراتها وإنما نشهد تأثيرها، وهذا يتطلب المزيد من اليقظة، حيث النظر إلى الآخر بوصفه الإمبريالي والوحشي والنقيض الذي لا يمكن التعايش معه، وحيث الواقع يحدض ذلك، يعيق التكيف مع الذات قبل كل شيء. ولعل من بين الأمثلة الأكثر دلالة هو ما طرحه "ادوارد سعيد" سواء في كتابه (الاستشراق) أو (الثقافة والإمبريالية) وهو يرسم عوالم متعارضة لا متعاضدة، أو متضادة لا متداخلة، وخصوصاً في كتابه الثاني وهو يحول الأدب (والنوع الروائي أكثر من غيره) إلى شهادات شخصية وتاريخية: غربية وإمبريالية واستعمارية لإدانة الغرب نفسه، والولايات المتحدة في السياق، ولكنه لا ينسى ثمناً التركيز على وحدة العالم، لا بل الرهان على ذاك الآخر المندد به وهو ينطلق من مفاهيمه ويعلم بها، فالآخر هنا اختلاق ذاتي كثيراً.

إن الممتع إنسانياً هو التجاوب مع صوت "كافافيس" قدماً باتجاه المستقبل:

عليكم السفر إلى أبعد البعيد،

أبعد من الأشجار التي تسجنكم..
أبعد من الحاضر الذي لا يزال يكبلكم...
أبعد من الغد الذي أخذ يقترب
وعندما تظنون أنكم وصلتم
اعرفوا كيف تجدون دروباً جديدة...

عنف العالم

وهنا يمكننا التوقف عند كتاب "جان بودريار"
و"ادغار موران": **عنف العالم** Laviolance du monde
والذي أصدره معهد العالم العربي في باريس، ونشرته دار
Felin عام 2003.

ولعل العنوان الأكثر دلالة هو العنف في العالم، أو عنف
العالمي، إذ أن عنف العالم يمتع المفهوم ويضعنا في مواجهة
ميتافيزيقا شائثة لا علاقة لها بما يجري، وكأن الذي يجري
من عنف لا يمكن تحديد قواه والذين يغذونه ويعتمدونه، لكن
ربما يكون (عنف العالم) كعنوان محاولة بحث في المضمون
أو ما يليه.

المؤلفان لهما باع طويل في الكتابة ومتقاربان عمراً، وهما
أقرب إلى المدرسة النقدية (مدرسة فرانكفورت) أكثر من أي
اتجاه آخر، وامتداد لها، حيث يصنفان في حيز كتاب ما بعد
الحدث، بآرائهما الجريئة، إنهما باختصار مفكران متفردان
بمواقفهما إلى درجة التطرف وهم يحلان جملة مفاهيم تقوم

عليها خصوصيات كل مجتمع، ساعيين إلى تقويضها بغية الأفضل، وفي فرنسا بالذات، وهما فرنسيان، ولهما أعمال كثيرة، وترجمات قليلة جداً إلى العربية، ويبقى ادغار موران أكثر محظوظية، فعلى سبيل المثال ترجمت له وزارة الثقافة السورية (مقدمات للخروج من القرن العشرين) منذ أكثر من عشر سنوات، و(روح الزمان) في جزئين، قبل قرابة عقد زمني، وأما بودريار فهو معروف على نطاق واسع في الغرب، وقليلة جداً هي ترجماته إلى العربية، إذ بالكاد تتعدى مقالات عدة، ولعل اللغة التي يعتمد عليها في صياغة أفكاره والتعبير عن مواقفه بجرأة وبنوع من العدمية الباءة والفظة، ربما يصعبان كثيراً مهمة المترجم والرغبة في التعامل معه، خصوصاً لحظة التفكير في العالم الفكري الذي يمثله وطبيعة طروحاته، وما يمكن أن تحدثه من ردود أفعال ومدى إقبال على قراءته عربياً، إذا راعينا المفاهيم وبنيتها الذهنية ونيشوية المتخيل فيها، خلاف ما هو عليه موران في كتاباته التي لا تخفي محرركاتها النفسية (الفرويدية) والسوسيوثقافية ولكنها لا تتوقف عندها، بقدر ما تمارس نقداً ثقافياً عاماً للمجتمع.

وهذا لا يعني نوعاً من المقارنة بينهما، فكل منهما عالمه المميز وقرأؤه كذلك، رغم تلاقيهما ما بعد حدثاً، وليس حديثهما عن العنف في العالم، سوى التعبير الأمثل عن الهموم المشتركة رغم الاختلاف في الكتابة.

وأعتقد أن أهمية الكتاب هذا (والمحدود حجماً ولكنه المكثف بمضمونه الفكري، من خلال مادتيه الرئيسيتين، والمدخل، والمداخلة والحوار) تتلخص في راهنيته، ليس بمعنى زمنيته المحدودة أو حديثه، وإنما بالقيمة المستتبّة والدا عمّة له ومن الداخل، وما نحن فيه يضاعف الأهمية المذكورة، فهو كتاب من أجل كل من يسعى إلى مقاربة هذا الذي يسمى عنفاً أو (العنف) أو يريد أن يعرف موقعه ولو بصورة تقريبية، وفي الوقت الراهن، حيث العنف يشغلنا جميعاً، مهما كان موقفنا منه...

والطابع المختلف للكتاب هو الذي يشدنا إليه بوصفنا معنيين بالحدث الذي توقفنا عنده سابقاً، ولا يتم فهم الذات إلا بالمزيد من فهم المسمى بالآخر (الآخر الذي هو أنا بالمقابل، والآخر الذي أتخيله، والآخر الذي يواجهني، وقد أكرهه، والآخر الواقعي، ولكن كما أعنفه... الخ).

لقد بذل صديقي المترجم "عزيز توما" جهداً كبيراً في إيجاد المقابل العربي للنص الفرنسي، حيث عايشته في عمله الأثير هذا (دون أن أقيمه، فهذا من شأن القارئ، إن موقفي يتعلق بمحاولته في التكيف مع النص الأجنبي وكيفية نقله إلى العربية لضرورة الموضوع والحدث معاً) لا يمكن لأي كان أن يكون في الكتابة أو في التعبير عن موقف ما أن يكون هو ذاته على صعيد الأنا، وأن يكون الآخر بوصفه المدرك الفلسفي المحاط

به من كل جانب، وربما الكتاب يعطينا فكرة من النوع هذا، ولا بد أن يكون هكذا).

وقد سعيت في مقدمتي هذه ألا أعلق على الكتاب إلا في نقاط معينة، فهو للقارئ، والذي يعنيني هو الحدث وكيفية مقاربتة تاريخياً، كما أن تعليقاتي لاحقاً هي من باب توسيع المفاهيم ومرافقة الآخر ربما بما يشبه كتابة النص الموازي، ولعل العنوانين اللذين اخترتهما لمادتي: جماليات العنف، ومقامات العنف، لم يوضعا عبثاً، في (جماليات العنف) تلمست في هذا العنوان، الكثير مما تلمسته من قوى باعثة على الكتابة، أو ما يحدث من حولنا راهناً بخصوص العنف، من تصورات ومدرجات جديدة لا يمكن تجاهلها، فثمة ما يغري في العنف، من حيث ممارسته بالقول والفعل، فهو مكون داخلي لا ينكر حضوره، أما في (مقامات العنف) فهو عنوان اخترته تعبيراً عن بنية أو محتوى ما اعتقدته العلامات الفارقة للكتاب الذي نحن بصده (هنا أكون قارئاً من بين قراء، وهذا أقصى ما أتمنى أن أكونه، لكن انطلاقاً من المفهوم الدقيق لكلمة "قارئ" الذي يسعى إلى تفهم موضوعه بعمق قدر المستطاع)، فثمة بعد تألّفي على هامش العمل المترجم، ولنا (أنا عزيز) أكثر من تجربة مشتركة، من خلال كتاب "جاك دريدا" (أركيولوجيا التوهم) الصادر عن مركز الإنماء الحضاري، حلب، 2004 — وكتابه الآخر (أحادية لغة الآخر) الصادر عن دار كتابات، في بيروت، 2004 كذلك.

ولعل أقصى ما نبتغيه معاً هو أن يحرك هذا الكتاب
المشترك، تساؤلات في ضوء الحدث السالف الذكر، وهو
حدث يقلقنا بإجاباته بالتأكيد.

ابراهيم محمود - القامشلي - الكورنيش

بصدد عنف العالم

بقلم: ماتي كابل

إن الابتعاد عن مشاعر الحقد والحقد المضاد، يعني التوضع فيما وراء الخير والشر، ومبتدعي الشوائب والصور المصغرة، ومقاربة منطق جمالية اللعبة المدمرة للمرأة بين الـ ((أنا)) و الـ ((آخر))، ومساءلة العالم في أحزانه... تلك الأسئلة من بين الكثير من أسئلة أخرى وقد أردنا طرحها دون موارد في أيام الخميس في معهد العالم العربي، إنما بطريقة مؤثرة و متميزة مع جان بودريار Baudrillard وادغار

موران Morin، بعد اعتداءات الحادي عشر من أيلول 2001
المرعبة في نيويورك.

لكل واحد منهما حسب طريقته له أفكار تتناقض بشدة مع
الأفكار المبتسرة لأشباه الاختصاصيين أو أشخاص طرحوا
أنفسهم كمفكرين عن الإسلام، عن الاسلاموية والـ ((أمر
الإرهابي)).

نصوص جان بودريار وادغار موران تدعونا للتفكير
وتجعلنا ننكب على دراسة أركيولوجيا العصور القديمة، وفك
رموز البقايا اللاواعية والحقول المنتشرة والخصبة في ما
وراء الأمم والحدود. لذا فان فكرهما ليس فكراً ظرفياً بل هو
فكر زمني معقد، متحرك وشامل.

ماتي كابل

Maati Kabal

عنف العالم

تأليف: جان بودريارد

الموضوع هو عنف العالمي، وأيضاً أحداث الحادي عشر من أيلول، وسأبدأ بالبرجين التوأمين Twin Twers ومعمارهما، لأن اعتداءات الحادي عشر من أيلول تتعلق أيضاً بفن العمارة architect. لقد كان البرجان صرحين من أروع صروح نيويورك، دمرا وانهار معهما ضرب من فن عمارة، كذلك كل منظومة قيم غربية، ونظام العالم. ومن المجدي

الشروع بتحليل تاريخي ومعماري للبرجين لبلوغ الدلالة الرمزية لانتهيارهما.

وفي بداية الأمر، لماذا البرجان؟ ولماذا برجاً مركز التجارة العالمي World Trade Center

لقد اكتفت جميع أبنية مانهاتن الشاهقة أن تتواجه في صيغة عمودية تنافسية، حيث نتجت عنها بانوراما معمارية، على صورة النظام الرأسمالي، وغابة هرمية كانت صورتها الشهيرة ترتسم عند وصول المرء من البحر. هذه الصورة تغيرت عام 1973، مع بناء مركز التجارة العالمي WTC. لقد انتقلت صورة النظام من المسلة والهرم إلى الخريطة القادحة وإلى الرسم البياني الإحصائي، وهذه الترسمة البيانية graphisme المعمارية تجسد نظاماً لم يعد تنافسياً، بل رقمياً أو حسابياً حيث اختفى التنافس لصالح الشبكات والاحتكار. يصل ارتفاع متوازي السطوح التام إلى 400 م، على قاعدة مربعة، وأوان مستطرفة، متوازنة تماماً وعمياء — قيل أن الإرهاب أعمى إنما كانت الأبراج أيضاً كذلك، أعمدة مؤلفة من كتلة حجرية monolithe تطل على الخارج وتخضع لتجهيز اصطناعي. إن حقيقة وجود برجين لا تعني نهاية كل مرجعية أصيلة. ولو كان هناك برج واحد، فإن الاحتكار قد لا يتجسد تماماً، الوحيد هو مضاعفة العلامة التي تضع حداً في الواقع لما تشير إليه.

ثمة سحر خاص لهذا التكرار . البرجان الشاهقان يدللان مع ذلك إلى كبح جماح العمودية verticalite. ليس لهما الصنف نفسه أسوة بباقي الأبنية، يشرفان على بعضهما الواحد والآخر في تناظر تام. كذلك لقد كانت أبنية مركز روكفلر Rockefeller Center تستجلي واجهاتها الزجاجية والفولاذية وسط مرآوية لا محدودة للمدينة. أما الأبراج، فلم تعد لها واجهة ولا وجه، في الوقت الذي اختفت فيه بلاغة العمودية واختفت بلاغة المرأة. لم يعد هناك سوى علبة سوداء، متوالية مغلقة على الرقم اثنان كما لو أن المعمار، على صورة النظام، لم يعد يقوم إلا بالاستتساخ أو يعتمد شيفرة وراثية ثابتة.

نيويورك هي المدينة الوحيدة في العالم يتعين عليها أن تعرض هكذا، خلال تاريخها، بدقة عالية، الشكل الراهن للنظام وكل انقلاباته. ينبغي إذا الافتراض بأن انهيار الأبراج — حدث فريد من نوعه في تاريخ المدن الحديثة — يجسد نهاية درامية، وباختصار اختفاء في آن واحد لهذا النمط المعماري ولهذا النظام العالمي الذي يجسده هذا النمط. هذان البرجان في قالبهما الإعلامى المصرفى المالى الرقمى الخالص كانا اللدماغ بطريقتى ما، لهذا فقد استهدف الإرهابيون اللدماغ، العصب الحساس للمنظومة.

يمر عنف العالم أيضا من خلال المعمار، بالتالى فان الرفض العنيف لهذه العولمة يمر كذلك من خلال تقويض هذا

الفن المعماري. وبعبارات تتعلق بهذه الفاجعة الجماعية، يمكن القول بأن رعب الضحايا، بالنسبة لأربع آلاف قضاوا في هذين البرجين لا ينفصل عن رعب العيش فيهما — رعب العيش والعمل في هذه التوابيت الحجرية المصنوعة من الاسمنت والفولاذ.

هذه الوحوش المعمارية العملاقة، كما هو مركز بوبورغ Beaubourg، مارست دائماً — تماماً مثل النماذج المذهلة للتكنولوجيا الحديثة عامة — سحراً غامضاً، إحساساً متناقضاً من الجاذبية والنفور، وبالتالي، في مكان ما، رغبة خفية في رؤيتها وهي تختفي. في حالة البرجين التوأمين، ثمة شيء خاص يضاف إليهما هو : تناظرهما وتوأميتهما. بلا شك، هناك في هذا الاستساخ وفي هذا التناظر التام سمة جمالية، إنما أيضاً من ضرب من جناية كاملة ضد الشكل، ضد قضية تتعلق بالشكل ربما تؤدي، اثر عنف ارتدادي، إلى محاولة تحطيم هذا التناظر، وإعادة اللاتناظر، وبالتالي إلى الغرابة.

لقد راعى هدمهما لا تناظر الأبراج: هجوم مزدوج خلال بضع دقائق. ترقب بين الاصطدامين. بعد الاصطدام الأول، كان يمكن توقع اصطدام آخر. الاصطدام الثاني هو الوحيد الذي يشير إلى العمل الإرهابي. عند الهبوط الاضطراري لطائرة بوينغ، في كوين Queen، بعد شهر، انتظرت شاشات التلفزيون، والتقطت البث (على الأقل في فرنسا) خلال ربع ساعة تقريباً، بانتظار هبوط ثان محتمل مباشرة. هبوط بما أنه

لم يتم، لهذا لم يكن بالامكان معرفة فيما إذا وقع حادث أو اعتداء.

إن انهيار الأبراج يمثل الحدث الرمزي الأكبر. تخيل أن هذه الأبراج لم تسقط أو أن أحد البرجين تهاوى: التأثير لن يكون ذاته على الإطلاق. البرهان الدامغ لهشاشة القوة العالمية لن يكون نفسه. فالأبراج التي كانت رمز هذه القوة مازالت تجسدها في نهايتها الكارثية، التي تشبه الانتحار. حين تراءت وهي تتهاوى بذاتها، كان ثمة انطباع وكأنها تنتحر، رداً على انتحار الطائرات المنتحرة.

هل تحطم البرجان أم انهاراً؟ في الواقع، البرجان يشكلان في نفس الوقت موضوعاً مادياً، معمارياً، وموضوعاً رمزياً (رمز القوة المالية والليبرالية العالمية). الجسم المعماري تحطم، غير أن الموضوع الرمزي هو الذي كان مستهدفاً وأريد تدميره. والاعتقاد الحائر أن التدمير المادي أدى إلى التدمير الرمزي. لكن في الواقع لا أحد، حتى الإرهابيين أنفسهم، لم يتوقعوا الانهيار الكامل للأبراج. في الحقيقة إن انهيارهما الرمزي هو الذي أدى إلى انهيارها المادي، وليس العكس. كما لو أن القوة التي كان تحمل هذه الأبراج فقدت فجأة كل طاقتها وكل رونقها، كما لو أن هذه القوة المتكبرة رزحت فجأة تحت وطأة قوة أكبر وكأنها أرادت دائماً أن تكون النموذج الوحيد في العالم.

هكذا فقد انهارت الأبراج ماديا في هذه المرة وبأكملها بعد أن تعبت لأن تكون هذا الرمز الثقيل جداً. لقد تحطمت حواملها الفولاذية وانهارت عمودياً، بلا قوة، على مرأى من اندهال العالم بأكمله.

إن الانهيار الرمزي حصل إذن عبر ضرب من مؤامرة غير متوقعة — كما لو إن النظام بأكمله، بفعل هشاشته الداخلية، قد أصبح على محك تصفيته الخاصة، بالتالي بات عرضة لتصفية إرهابية. لهذا فمن المنطقي والحنمي إن التصعيد في قوة القوة يثير إرادة تحطيمها، لكن من جهة أخرى بات مساهماً في تحطيمها الخاص.

تشهد الأفلام — الكوارث على هذه الفانتازما، وتشارك عبر الصورة والتأثيرات الخاصة، لكن الجاذبية التي تمارسها فهي علامة انتقال إلى الفعل القريب جداً — أي نفي كل نظام، بما فيه النفي الداخلي الذي يقترب بفعل قوته من الإلتقان والجبروت.

قيل أن الله نفسه لا يستطيع أن يعلن الحرب على نفسه، إنما بلى!. حسناً، لو أن الغرب في موقع الله (موقع الجبروت الإلهي والشرعية الأخلاقية المطلقة)، لأصبح انتحارياً وأعلن الحرب على نفسه.

إلى درجة يمكن الذهاب بعيداً والقول بأن الإرهابيين نجحوا، حتى في فشلهم، في تحقيق ما يتجاوز آمالهم، وهم يخفقون في تصويب البيت الأبيض، وينجحون تماماً في ضرب

البرجين. حين أخفقوا في استهداف البيت الأبيض White House، برروا ذلك اضطراراً بأنه ليس ذاك الهدف الأساسي، وأن السلطة السياسية لا قيمة لها تذكر في الواقع، وأن القوة كانت في موضع آخر.

أما مسألة معرفة ما ينبغي إعادة بنائه في مكان البرجين، فبقيت غير محلولة، لأنه ببساطة لا يمكن تصور شيء يضاهي حجم هذا الدمار ويستحقه. كان من الصعوبة بمكان تصور انهيارهما، فلا يمكن الحديث عنهما بمقدار الحديث عن الكثير من الأعمال الفنية المعمارية. إن أغلب الأشياء لا تستحق كل هذا الدمار أو التضحية، الوحيدة هي الأعمال ذات النفوذ التي تستحق ذلك، لأن الأمر يتعلق بالكرامة.

هذا العرض ليس مفارقاً كما يبدو، بقدر ما يطرح أسئلة أساسية تتعلق بالجانب المعماري: أي أنه لا ينبغي بناء إلا ما هو، بامتياز، جدير بالتحطيم. ادرسوا جميع القضايا باقتضاب تبعاً لهذا الاستفهام الجذري، وسترون نتيجة ذلك: ليس ثمة من مهيب يصمد أمام هذه الفرضية المتطرفة. وهذا يرتبط بما يجب أن يكون عليه الفن المعماري، وبما لم يعبر عنه أبداً المهندسون المعماريون: لذا من غير الطبيعي الشروع في التشييد والبناء. لابد من الحفاظ على الطابع غير المؤلف لهذا المشروع، الطابع الغريب والإشكالي، حيث عذره الوحيد هو أنه يسعى إلى طمس ذاته ويجعل من نفسه لا مرئياً.

كل شيء في مبتداه. كل شيء يبدو مصرفاً على نحو مباشر، وسط تصادم النقائص. ولو أخفينا هذه اللحظة من الانذهال، الإعجاب — اللاأخلاقي بلا شك، حيث يجد الحدس المغالي نفسه أمام الحدث مترافقا عبر أبدية الصورة —، وإذا غافلنا هذه اللحظة نفقد كل إمكانية الفهم. وإذا جاءت الفكرة الأولى كالتالي: هذا مربع وغير مقبول، حينئذ تتلاشى حدة الصدمة ووقعها في خضم الاعتبارات السياسية والأخلاقية. إن كل الخطابات تبعدنا حتما عن الحدث ولم يعد بوسعنا أبداً الاقتراب منه، ولا حتى من الانفجار الكبير Bing Bang أو من الخطيئة الأصلية.

أمام حدث فريد كهذا، لابد والحالة هذه من رد فعل فريد، مباشر وعبثي. رد فعل يستخدم بطريقة ما الطاقة الكامنة للحدث — فكل ما سيتبعه، بما فيه الحرب، ليس إلا شكلاً من أشكال التميع والضعف المتصاعد. من هنا جاءت صعوبة العدول عن التعليق بشكل مباشر: أي كما لو أننا نطالب الإرهابيين أنفسهم أن يستأنفوا عملهم ببطء، وبين أيديهم المفتاح وطريقة استعماله.

بداية، الحدث هنا. الحدث والصورة هما هنا أولاً، تزامنياً، بشكل مبهم. الحدث — الصورة. الصورة — الحدث. الصورة عادة وفي عالمنا الإعلامي هي هنا في موقع الحدث، تقوم مقامه، واستهلاك الصورة يستوفي الحدث بالوكالة. هذه الرؤية الاستبدالية هي الاستراتيجية ذاتها للنبا — أي، في

الواقع، تتبع غياب النبأ بكل الوسائل. كل شيء مثل الحرب الراهنة هو تتبع السياسة من خلال وسائل أخرى.

هكذا فإن الحرب الأفغانية ليست حرباً، إنما هي ما نقوله لنا وسائل الإعلام عنها، وهي ليست إعلاماً على الإطلاق. لهذا فإن كل شيء يتساوى بغيره، اللعبة متساوية. فغياب الإعلام يقابل بطريقة ما غياب الحرب، من خلال إلغاء متبادل كالإلغاء الذي تحدث عنه برتولد بريخت في كتابه ((حوارات المبعدين)).

إذاً، الصورة، في النظام الطبيعي لوسائل الإعلام، هي الملاذ الخيالي في وجه الحدث، إنها شكل من أشكال الفرار، مؤامرة الحدث. بهذا المعنى، إنها عنف خلق للحدث. بالعكس، في حالة مركز التجارة العالمي WTC، ثمة ميوعة تتعلق بالاثنتين، بالصورة والحدث. والصورة ذاتها تغدو حدثية. إنها تصنع الحدث بوصفه صورة.. فهي ليست افتراضية ولا واقعية، إنما حدثية. كذلك في حالة حدث استثنائي كهذا، هناك ميوعة تتعلق بالواقع والخيال، إذاً، ليس هناك ضياع للواقع، إنما بالعكس مزيد من الواقع المرتبط بمزيد من الخيال، وبطريقة ما ثمة صلة بفعل رمزي شامل، تماماً مثلما كان يتحدث موس Mauss عن الفعل الاجتماعي الشامل.

في هذه الحالة المعقدة، تصبح الصورة مثل الحدث تماماً غير قابلة للتخيل. هذا ما ادعاه، من جهة أخرى، كل العالم وهم ينظرون إلى الأبراج وهي تنهار: شيء غير قابل

للتخيل! ولهذا ليس ثمة تصور ممكن لهذا الحدث. إنه غير قابل للتصور عبر بعض الخطابات أو التأويلات السياسية والاقتصادية والنفسية. وبوصفه حدثاً محضاً، فإنه يتجاوز كل ذلك. وإذا كان من غير الممكن تصوره، فإنه من غير الواقعي خصوصاً التحدث عنه — إنه في نفس الوقت غير واقعي وواقعي بإفراط. فبدلاً من إنتاج الخبر أو تعميم خبر يتصف بال ((واقعي))، فإن هذا الإعلام ينتج من اللائقين لا يقينية واسعة، تماماً لأنه يحطم التتابع الخطي للأحداث ((الواقعية)) والتتابع الخطي المتواصل للصور. وحتى بدلاً من تدفق الأحداث السطحية والصور المبتذلة التي نتواصل معها، فإن هذا التدفق يشير إلى توقف قطعي للصورة، توقف عنيف للعالم، توقف عنيف في محطات الإعلام.

كذلك فإنه ليس ثمة تصور ممكن، ليس ثمة نشر حدث كهذا يتعين التحدث عنه بصورة خاصة. إنه حدث مشهدي مذهل ومستتر في آن واحد. فلا نشر، بل ثمة نوع من انحراف (كنوع من ظاهرة تصدعية)، من تصفية، من فعالية صامته بحيث هناك محاولة بالتأكيد لا ضعفها وإدراجها في كل التعليقات الشبيهة بالانتقالات المرضية metatases.

في الواقع، إن هذا الحدث، بوصفه حدثاً خالصاً، فقد اختفى (كما اختفى أسامة بن لادن!). إنه محكوم بالاختفاء وسط عمل سياسي وأيديولوجي هائل من التضليل، إنه عمل مأتمني، ينبغي طمسه. وينبغي طمس كل التبعات عبر

الخطاب، كما ينبغي العودة به إلى الوضع الطبيعي للأشياء، حيث كانت الحرب جزءاً منه.

إن انهيار برجى مركز التجارة العالمي WTC شيء لا يمكن تصوّره، غير أن ذلك لا يكفي أن نصنع منه حدثاً واقعياً. وإن مزيداً من العنف لا يكفي للانفتاح على الواقع. لأن الواقع هو مبدأ، وهذا المبدأ هو الذي تلاشى. الواقع والخيال أمران مبهمان، وجاذبية الاعتداء هي جاذبية الصورة أولاً — النتائج الابتهاجية والكارثية في آن هي بحد ذاتها خيالية بشدة. في هذه الحالة إذا، الواقع يضاف إلى الصورة كمكافأة للرب، كقشعريرة على الأغلب. الأمر ليس فقط مرعباً، إنما أيضاً واقعي. فبدلاً من حضور الواقع هنا أولاً وإضافة هلع الصورة إليه، فإن الصورة هي هنا أولاً، ويضاف إليه هلع الواقع. شيء كخيال على الأكثر، خيال يتجاوز الخيال. هكذا كان بالارد Balard (بعد بورغ Borges) يتحدث عن إعادة ابتكار الواقع، كالتصور الأخير المرعب جداً.

هذا العنف الإرهابي ليس إذاً بمثابة عودة لألق الواقع، ولا حتى عودة لألق التاريخ، هذا العنف الإرهابي ليس ((واقعيًا)). إنه الأسوأ بمعنى ما: إنه رمزي. قد يكون العنف بحد ذاته سطحياً ومسالماً. الوحيد هو العنف الرمزي الذي يصنع التميز. وفي هذا الحدث الفريد من نوعه، في هذا الفلم الكارثي لمنهاتن Manhattan يترابط عنصراً جاذبية ركام

القرن العشرين: السحر الأبيض للسينما والضوء الأسود للإرهاب. بهذا المعنى، الحدث يأتي دائماً في المرتبة الأولى، وهو غير متوقع.

هكذا فإن حدث نيويورك قد تم تصويره مرات عديدة كسيناريو (البرج الجهنمي...) من قبل هوليوود أو من قبل الـ CIA، لكن أبداً لم يكن تصويره كحدث ممكن، لهذا بقي غير متوقع تماماً. السيناريوهات الافتراضية قادرة على أن تستنفذ كل الاحتمالات إنما ليس بوسعها أن تستنفذ أبداً الحدث ذاته. والحال أن معظم الأشياء، الواقعية منها أو الافتراضية، لا تصنع حدثاً. إنها من مرتبة استمرارية القضايا والتأثيرات. الحدث، بالمعنى الواقعي، هو من مرتبة الانفصال والقطيعة. بهذا المعنى، كل حدث يستحق هذا الاسم هو إرهابي. إنه شكل من الانتقال إلى الفعل الرمزي، لهذا فانه مصدر جاذبية فريدة، المعادل لجاذب غريب.

قيل أن أحداث الحادي عشر من أيلول كانت تمثل عودة الواقعي reel بشدة في عالم أصبح افتراضياً، من خلال حنين للقيم القديمة الحسنة للواقع وللتاريخ حتى التاريخ العنيف، إنما الأمر لا يتعلق بذلك. الأمر لا يتعلق على الإطلاق بهجمة الواقعي، إنما بهجمة الرمزي، العنف الرمزي الذي يوصف بالتبادل المستحيل للموت.

هناك فرضيات مختلفة ممكنة حول الإرهاب، حول الفرضية في درجة الصفر لتلك التي اسميها الفرضية السائدة. وباستثناء

هذه الأخيرة فإن هذه الفرضيات تسعى بأكملها إلى منحها معنى تاريخي، سياسي، ديني، نفسي وحتى إلى طمس تميزها. إن الفرضية في درجة الصفر تعني إن العمل الإرهابي ليس له أهمية خاصة ولا معنى له وكان عليه أن لا يوجد. إنه ليس إلا انقلاباً مفاجئاً في السباق العالمي نحو الخير والسعادة، وهذا يرتبط بالرؤية اللاهوتية التي بموجبها لا يغدو الشر إلا وهماً.

الفرضية الثانية تتعلق بالانتحار يبين المتزمتين، المتطرفين لقضية فاسدة، السيكوباتيين (مضطربي الشخصية والعقل) القتل serial killers الذين يتعين إقصاءهم (انظر ما حدث لهم في غوانتانامو). إنها الأطروحة الأعم لمناورة الإرهابيين أنفسهم عبر قوة ما مؤذية. أطروحة المؤامرة التي تطال فكرة مفادها أن الإرهاب لا يقوم إلا على استغلال الكراهية والحق لكل الشعوب المظلومة لتبرير عنفه وغيظه المدمر. هذه الفكرة موجودة إنما بصورة معكوسة، في محاولة لتبرير الإرهاب كتعبير حقيقي ليأس الشعوب المظلومة في كل أنحاء العالم. فرضية أعلى، بمعنى أنها المحاولة الأخيرة لإعطاء الإرهاب دافعاً موضوعياً وبالتالي مبرراً تاريخياً. لكن إذا أمعنا النظر فيها، نجد أن هذه الأطروحة التي تركز على اليأس، هي نفسها يائسة. إنها تدين الإرهاب بوصفه إشارة إلى العجز، إقرار بعجز لا يمثل الشقاء العالمي إلا من أجل تدميره بحركة حاسمة.

من جهة أخرى، إذا كان لابد من إيجاد مبرر للإرهاب أو ظرف موضوعي لإمكانية ما، حينئذ فإن الهيمنة على باقي العالم هي بلا شك هيمنة واحدة، إنما أيضا الامتثال المضلل — امتثالنا — لتكنولوجيا متطورة، للتطور الفائق الذي يصنع من كل وجود فردي موضوعا للامبالاة شاملة، حتى حقداً وانتقالاً مضاداً، وهذا يحصل في البلدان المتطورة جداً. وربما يكون هناك رفض لهذا الواقع الافتراضي الساحق، لهذا التفوق التقني والاصطناعي المتمثل بالهيمنة والإذلال الخفي. كل ذلك يؤدي إلى رد فعل عنيف وانتقامي، بطريقة ما، على هذا الإفراط في واقع الشيء. في الواقع، اليأس ربما له وجهان.

يمكن أيضاً التعرف في حالة الإرهاب على صيغة عمل سياسي وإرادة خاصة، كصيغة مشروع وغاية مبررة لرفض نظام العالم. إنما بالأحرى من أجل الإعلان عن فشله وشرذمته من خلال النظام ذاته. إنها الرواية من بين أخرياتها لـ Arundati Roy، الكاتب الهندي الذي يدين هذه القوة العالمية كما يدين الإرهاب كأخوين توأمين، توأمين شيطانين للنظام يمثل السرطان والإرهاب عدواه.

إذاً، الإرهاب يعتبر هذه المرة كغطاء متواطئ، كآلية فعل ارتجاعي feed back، كقوة معارضة ضرورية عملياً وسط جدل شرير يؤسس الإمبراطورية كآلة جهنمية وحركة أبدية. وتأتي قوة الشر كمجدد للقوة الإلهية. هنا أيضا يتعلق الأمر بعرض شبه لاهوتي. لدرجة يمكن الاعتقاد أنه فيما إذا

كان الإرهاب غير موجود، لابتكره النظام، ويمكن رؤية بصمات CIA، كما حدث، في اعتداءات نيويورك.. جدل يائس هو أيضاً، مادام أنه من المفترض أن شيئاً ليس بوسعه أن يصنع الحدث ضد النظام، وأن كل نفي وكل عنف عبارة عن تواطؤ مسبق لمجريات الأحداث، المجريات الحتمية للعولمة. إنه رفض لكل تميز، لكل عنف نوعي لحظة وقوع الحدث ذاته. إنه تجريد ليس فقط لمقاصد الممثلين إنما للرهان نفسه على عملهم. إنها محاكمة وإقصاء للعمل بالنسبة لنتائج، لتبعاته المسماة بالموضوعية، إنما أبداً لقوته الرمزية الخاصة.

من جهة أخرى يمكن الإطاحة بهذا الجدل والقول بأن النظام العالمي هو الذي ينسل نفيه الخاص وأن هذه القوة الإرهابية القائمة على الرفض تستفيد من كل صعود لقوة النظام لتنمو بنفسها عبر نوع من سباق تصعيدي، سباق وفق الوقت قبل اتخاذ القرار.

فإذا كان الإرهاب يدعي أنه يحدث الخلل في النظام العالمي أو الدولة كما أسلفنا سابقاً، فإنه إرهاب عبثي. وبما أن النظام العالمي أو الدولة لم ينوجدا على درجة عالية وبحصر المعنى، ومصدر فوضى ولا استقرار، فمن غير الفائدة الرغبة في إثارة مزيد من الفوضى والاستقرار. الخشية تكمن في تعزيز النظام ورقابة الدولة وسط هذه الفوضى الإضافية، مثلما نجد الآن عند اتخاذ إجراءات أمنية جديدة في كل مكان.

لكن، هل هذا هو حلم الإرهابيين؟ في الواقع، إنهم يحلمون بعدو دائم، وإن لم يكن موجوداً، فانه من الصعب جداً إفناؤه. مغالاة كهذه لا تبتكر، لكن الإرهاب مبالغ فيه وحصيلته ضرب من جدل مفارق: إذا كانت الدولة موجودة حقاً لأضفت على الإرهاب معنىً سياسياً. وبما أن الإرهاب غير موجود ظاهرياً – نتائجه هي تقريباً عدمية وطوباوية – فان هذا دليل بان الدولة غير موجودة. إنها طريقة للتوقيع على نهاية السياسة وانحرافاتهما، هكذا فان من دون أدنى شك أن نهاية الحرب، نهاية مفهوم الحرب قد تم تجاوزها اليوم بشكل كبير عبر مواجهة غير متكافئة. أين إذاً الرسالة السرية للإرهابيين؟

ثمة حكاية تنسب إلى نصر الدين حيث كان يجتاز كل يوم الحدود برفقة بغاله المحملة بالأكياس. في كل مرة كان نصر الدين يفتش، وتفتش معه أكياسه، لكن لم يتم العثور على أي شيء. وهكذا استمر في اجتياز الحدود مع بغاله. بعد زمن طويل سأل أحدهم نصر الدين فيما إذا كان ينقل بضاعة مهربة عبر الحدود. أجاب نصر الدين: ((كنت أهرب البغال...)).

هكذا، هل يمكن البحث في كل أنواع تفسيرات هذا العمل الإرهابي، وفقاً للدين، للشهادة، للانتقام أو للاستراتيجية السياسية. ماذا يختبئ هناك؟ ما هو الهدف؟ ما هي البضاعة الحقيقية للمادة المهربة؟

والحال أن الرسالة السرية هي ببساطة أشبه بالانتحار، بالمبادلة المستحيلة للموت، بتحدي النظام من خلال الملكة

الرمزية للموت، بطريقة ما لسلح المطلق. ويبدو جيداً أن
برجي مركز التجارة العالمي WTC قد أدركا الرسالة
وعكساها بذكاء مباشر، ذكاء عميق وتواطؤ مع الشر.

ما وراء كل هذه الفرضيات، لا أرى في الواقع سوى هذه
الفرضية المطلقة — اسميها المطلقة بالمعنى الذي يتحدث نيتشه
عن الفرضية المطلقة للصيرورة.

(هناك فرضية في درجة الصفر في العطالة كالفرضية
الصغرى للتبادل، الفرضية العليا للتاريخ والفرضية المطلقة
للصيرورة).

في حالة الإرهاب، تحاول الفرضية المطلقة التفكير به في
ما وراء الممثلين والعنف المشهدي كظهور تناقض راديكالي
في صلب سيرورة العولمة، في صلب شيء يتعذر نفيه، في
تميزه، في هذا الإنجاز الحقيقي، التقني والذهني للعالم، في هذا
التطور الحتمي لنظام عالمي منجز، إنجاز للعالم بتأثير قوة
حاسمة، سواء رأينا في الإرهاب بكل أشكاله قوة مضادة حيوية
تتمكن من القضاء على قوة النظام — كقوة عولمة عابثة — أو
وجدنا فيها قوة موت، أي انقسام، نفي ضد قوة ايجابية
لتصالح شامل، لعالم قابل للانصهار بكامله في التبادل. بالتالي
قوة تحد وفشل ضد ما نسميه المماثلة الشاملة للعالم والتي،
بالتأكيد، زادت عنفاً وفتكاً، في الوقت الذي ينمو النظام تدريجياً
سطوة وتماسكاً، مع وقوع حدث القطيعة حدث البرجين

التوأمين Twin Towers الذي لم يزيل على الإطلاق هذا التناقض، إنما منحه مباشرة بعداً رمزياً.

الفرضية المطلقة تؤكد أن الإرهاب لا معنى له ولا هدف له ولا يقاس بالنتائج الحقيقية، السياسية أو التاريخية. ولأنه بلا معنى، حسب فهمنا، فهذا يعني أنه يصنع الحدث في عالم مشبع أكثر فأكثر بالمعنى، بالغائية والفاعلية. تلك هي ذهنية الإرهاب واستراتيجيته المضمرة: معنى ذلك أنه لن يتم القضاء أبداً على النظام تبعاً لعلاقات القوة، ذلك هو المخيال الثوري المحتمل الذي يفرضه النظام نفسه والذي لا يدوم إلا ليقود باستمرار هؤلاء الذين يهاجمونه في ساحة الواقع التي هي دائماً ساحته. ما ينبغي فعله هو نقل الصراع إلى الإطار الرمزي، حيث القاعدة هي قاعدة التحدي، قاعدة الردة والمزايدة. وهذا يعني أنه ليس بالإمكان الرد على الموت إلا بموت مواز أو فائق. إن تحدي النظام من خلال ملكة ليس بوسعه الرد عليها إن لم يكن من خلال موته الخاص وانهياره الخاص. الفرضية الإرهابية، هذا يعني أن النظام نفسه ينتحر رداً على تحد هائل للموت والانتحار. لأنه لا يمكن للنظام ولا السلطة أن يتملصا من الالتزام الرمزي، الالتزام القائم على الرد تحت طائلة فقدان المكانة.

في هذه الحلقة المدوخة للتبادل المستحيل للموت، يغدو موت الإرهابي نقطة في بحر، إنما يثير توقاً، فراغاً، بروزاً عملاقاً. حول هذه النقطة المتناهية في الصغر، كل النظام —

نظام الواقعي والقوة - يتكثف، يضطرب، يتكاثف ويتلف في فعاليته الفائقة. إن خطة النموذج الإرهابي قائمة على إثارة عنف الواقع، وهدم النظام في خضم هذا العنف المتصل بالواقع. وإن كل هذه السخرية من الواقع كذلك العنف المجيش للسلطة يستهدفان هذا النظام، لأن الأعمال الإرهابية هي المرآة المفرطة الانعكاس لعنف هذا النظام الخاص ونموذج عنف رمزي على حد سواء محظور بالنسبة إليه، العنف الوحيد الذي لا يستطيع أن يمارسه: أي عنف موته الخاص. لهذا فإن كل القوة المرئية لا يمكنها فعل أي شيء في وجه الموت المتناهي في الصغر إنما الرمزي لبعض الأفراد.

ما يمكنه أن يحدث تشظ في النظام العالمي، هو بهذا المعنى، عبارة عن تميزات. والحال أن التميزات ليست سلبية ولا ايجابية، فهي لا تشكل خياراً للنظام العالمي، إنها من مقاس آخر، لا تخضع لحكم القيمة، وهي قد تكون الأفضل أو الأسوأ، منفعتها الوحيدة هي في تحطيم طوق الشمولية، لا يمكن إدراجها في عمل تاريخي بمجموعه، أصيبت بخيبة أمل إزاء كل فكر وحيد ومهيمن، لكنها فكر - مضاد وحيد. هذه التميزات تبتكر لعبتها وقواعدها الخاصة، قواعد اللعبة. ما أقصده بالتميز singularit، ما هو قائم في نظام التبادل المستحيل l'echange impossible

التميز ليس عنفا بشدة، قد يكون بارعاً، ربما كبراعة تميز اللغات، الفن، الثقافة، الفكر أيضاً، بشرط أن لا يتغير

أمام الحقيقة والواقع. لكن ثمة تميزات أخرى عنيفة، والإرهاب هو واحد منها. فهو تميز لأنه يراهن على الموت الذي هو بلا شك التميز الأخير، التميز الجذري. في حالة الأحداث الإرهابية التي وقعت في نيويورك، كل شيء يراهن على الموت، ليس فقط من خلال هجمة الموت مباشرة – في الزمن الواقعي على الشاشات – التي تقضي بضربة واحدة على سيمولاكرات simulacres العنف والموت التي تتدفق إلينا يومياً بجرعات تجانسية، إنما عبر غزوة موت أكثر واقعية، رمزية وقرباً نية، أي الحدث المطلق والعبثي.

الإرهاب هو الفعل الذي يستعيد تميزاً لا يمكن اختزاله في قلب نظام تبادلي معمم. وكل التميزات، سواء على مستوى النوع، الفرد، الثقافات، والتي دفع ثمن موتها هذا الانتقال العالمي للتبادلات، المنظم من قبل قوة وحيدة، تنتقم اليوم من هذا التحويل الإرهابي للوضع. لكن النظام نفسه هو الذي ابتكر الظروف الموضوعية لهذا الرد القاسي. عندما استجمع قواه وأوراقه، أرغم الآخر على تغيير اللعبة وقواعدها. القواعد الجديدة عنيفة لأن الرهان عنيف. والإفراط في القوة يطرح تحدياً غير محلول لنظام ما، الإرهابيون يردون بعمل حيث يتبادل ذاته غير قابل للحل وغير ممكن. الإرهاب إذا في مواجهة الإرهاب. والحال أن الإرهاب ليس العنف. إنه ليس عنفاً واقعياً، محدداً، تاريخياً، العنف الذي له سبب وغاية، إنه ظاهرة متطرفة، أي أنه موجود في ما وراء غايته، بطريقة ما: إنه أكثر عنفاً من العنف. أياً كان هذا العنف التقليدي اليوم،

فإنه يعيد خلق النظام، وهذا معروف، شرط أن يكون له معنى. في الواقع إن التهديد الوحيد للنظام هو العنف الرمزي، العنف الذي لا معنى له لا يحمل أي خيار أيديولوجي. والحال أن الإرهاب لا يحمل في داخله، وهذا جلي، أي خيار أيديولوجي أو سياسي. لهذا حين يصنع الحدث، يكون هذا الحدث موضع ابتهاج خاص: عند الانتقال إلى الفعل الرمزي، لا نجد الابتهاج في الواقع أبداً أو في النظام الحقيقي للأشياء. باختصار، وللإتمام، ومع برجي مركز التجارة العالمي WTC، سقط حاجز الحماية بشكل قطعي، وفي وسط حطام المرأة المحطمة، بحثنا بيأس عن صورتنا.

كان ماركس يقول: ((ثمة شبح يلاحق أوروبا اليوم هو شبح الشيوعية)). ونحن بوسعنا القول: ((ثمة شبح يلاحق اليوم النظام العالمي هو شبح الإرهاب)).

بلا شك، هناك سبب عميق وراء ذلك: وهذا ما لا يمكن تحمله، هو البؤس، الألم أو الشقاء أقل مما هي القوة ذاتها وعجزفتها. و ما هو غير قابل للتحمل وغير مقبول، هو بروز هذه القوة العالمية الجديدة.

جان بودريار (*)

Jean Baudrillard

(*) ولد جان بودريارد عام 1929، وهو عالم اجتماع بارع وفيلسوف قل مثيله في اتخاذ المواقف المبدئية، حاصر فترة طويلة من الزمن في جامعة باريس — X نانثير، وهو أحد المنقّين الفرنسيين الأكثر شهرة في الخارج.

مقدمة لمداخلة ادغار موران⁽¹⁾

بقلم: فرانسوا ليفونيه

إن تقديم ادغار موران ليس بمهمة سهلة باعتباره مفكراً فريداً من نوعه مثله مثل جان بودريارد. وأعماله تشهد على فكر حديث يتوضع بجرأة في واقع عصره، و له الفضل من التحرر من المقولات الجاهزة categorie. إن اعتباره هذا

⁽¹⁾ كتب هذه المداخلة فرانسوا ليفونيه Frabcois L'Yvonnet، وهو فيلسوف ومنتشط البرامج الثقافية حول فرنسا — الثقافة.

الفكر مرتبطاً فقط بالانتروبولوجيا يعود تفسيره إلى جهل التنوع في حقله الفكري. فإذا كان ادغار موران يمارس مهنته كعالم اجتماع، فإنه لا يمكن مع ذلك اختزال فكره إلى هذا المنهج.

اعتقد أن الكلمة التي تصفه بصورة أفضل هي كلمة فيلسوف. إنه فيلسوف بالمعنى الذي يكون فيه منظرًا، أي الشخص الذي يدرك النظرية. فبالإغريقية، *theoria*، تعني التأمل، الملاحظة. وأكثر من ذلك، تعني الرؤية التي تضم المعارف المتنوعة وتهدف إلى رسم الطرق الجديدة. وهنا ينجح ادغار موران في الإشارة إلى انطونيو ماشادو Machado : ((على الطريق الذي يبتني وهو يتقدم)). تقول أحياناً بأنك محرق حرفي أو عالم متميز في المعرفة: إنها صورة جميلة جداً تختصر طريقتك في تنظيم مجموعة من الأفكار، من التصورات لتطبيقها في حقل خاص. هنا استحضر مونتaigne عندما يشير إلى النحل الجارس الذي يذهب هنا وهناك وينتج العسل. بهذا الصدد، اعتقد أنه يجب العودة إلى الكتاب الأخير لـ موران، المنهج V، لقياس أهمية المعطيات التي يتعامل معها هذا الكتاب وقدرته في ربطها ببعضها.

موران ليس فيلسوفاً فقط إنما أيضاً مبتكر المفاهيم، مثلما يحدد جيل دولوز Deleuze وظيفة الفيلسوف. هؤلاء الذين قرأوا أعمال ادغار موران استطاعوا ملاحظة الخصوبة

النظرية لتصوراته الموجودة في قلب التركيب المعقد. دعونا نذكر على سبيل المثال المبادئ الثلاثة التي تمثل الطابق الأخير لمبنى التعقيد، أو المبدأ الحواري الذي يتجاوز ويعارض المفهوم الهيجلي للديالكتيك، أي التناقض الذي لا يمكن حله في حالة الحد الثالث. يجب على المرء أن يكون قادراً على التفكير بما يتناقض ويتكامل، كالحياة والموت، وذلك لتذكير هيراقليطس، ((العيش ميتاً والموت حياً))، أو العقل والجنون، أو أيضاً معركة شكسبير وماركس حيث يمكنك أن تتخيل أحياناً تواصلهما غير الممكن.

المبدأ المكرر هو المبدأ الثاني – الذي يبدو لي نموذجياً من حيث المنهج – يتجاوز السببية الكلاسيكية، أي هذا التناظر القائم بين السبب والفعل: السبب ينتج الفعل، والفعل نتيجة للسبب، المقصود هنا الحلقة المكررة. بهذا الصدد، يمكن العثور على مثال في كتابك حول الطبيعة التي تولد الثقافة والتي تغير الطبيعة بالمقابل. المبدأ الثالث هو مبدأ الكتابة الهولوجرامية hollogramique: إذا كان الجزء يتشكل من الكل، حينئذ يمكن إيجاد الكل في الجزء. هذا المبدأ له استخدامه في المجتمع من قبل الأفراد من خلال الثقافة.

ادغار موران فيلسوف بالمعنى الثالث، مثلما كان كذلك وعلى نهجه الفلاسفة المبكرون، لأنه يؤمن بالعلاقة بين النظرية والممارسة. إنه لا ينتمي إلى النوع الحزين من

فلاسفة الصالونات، كذلك صاحب حلقات دراسية، مما هو نادر بين المتقنين.

قبل أن يكون مفكراً كان رجلاً قادراً على اتخاذ المواقف الجريئة والواضحة حول عدد من الأسئلة المتعلقة بالأحداث الجارية. إنه رجل ملتزم بتاريخ عصره، والدليل على ذلك التزامه خلال المقاومة Resistance ومواقفه لصالح تسوية القضية الفلسطينية. لقد كتب ادغار موران في وقت قريب مقال في صحيفة لوموند Le monde⁽²⁾، خصص لهذا الموضوع المحزن حيث قام بتحليل منفصل بارز عن الانفعالات العامة. والمقصود هنا، عندما يتجرأ أناس شجعان لمعارضة الأفكار الوافدة ولإثارة نقمة الآخرين. لقد قاد كفاحه ضد الستالينية إلى ترك الحزب الشيوعي في الخمسينيات. والعمل الذي يقوم به في وزارة التربية الوطنية بالغ الأهمية وتعبير عن إرادة الانخراط في إصلاح البرامج التربوية. يحاول إقناع وزير التربية حول ضرورة إزالة الحواجز بين الأنظمة وربما تربية المربين، وذلك لإعادة طرح سؤال ماركس الشهير: ((من سيربي المربين؟)) - ونحن ما زلنا نطرحه على أنفسنا... وأخيراً، أعتقد أن ادغار موران مفكر

⁽²⁾ راجع هذا المقال في صحيفة لوموند Le monde، عدد 4 حزيران

2002، ((إسرائيل - فلسطين: السرطان))، بقلم ادغار موران،

سامي نير ودانييل ساليناف Sallenave.

تعقيد المراكز المتقدمة. يبدو لي أن كل ما هو واقعي هو واقعك، وأن كل الذين لا يعرفونه عليهم قراءة كتابه الرائع شياطيني، Mes demons. إنه بارع في علم الاجتماع والانتروبولوجيا براعة ليفي - شتراوس في كتابه مدارات Tristes tropiques حزينة المتعلق بالانتولوجيا: فكر مؤسس ونقدي في آن واحد.

إن موضوع مقابلتنا هو كالتالي: ((في قلب الأزمة العالمية)). إذا كان لكل كلمة من هذه الكلمات صدى موراني (نسبة إلى ادغار موران)، فلا بد من العودة إلى علم اشتقاق كلمة ((أزمة)). هذه الكلمة مشتقة من الكلمة الإغريقية krisis وتنتمي إلى اللغة الطبية وإلى المدونة الأبيقراطية: الأزمة هي ما يجيز القيام بعملية التشخيص. يبدو لي أن المشكلة تكمن في صعوبة إجراء التشخيص على حالة كوكبنا. هذا الكوكب هو فريسة أزمة تطل حتى الفكر. مذاك، إنه لأمر شرعي أن نتساءل حول قدرة الفكر المأزوم والتفكير بالأزمة. أليس هناك حلقة قائمة تدين فشلاً يتعلق بمحاولة التفكير بالأزمة الكوكبية؟

فرانسوا ليفونية

في قلب الأزمة الكوكبية

بقلم ادغار موران

في قلب الأزمة الكوكبية

هذا الحوار يدخلنا إلى ((قلب الأزمة الكوكبية)). وكلمة ((كوكبية)) تشير إلى أن الأمر يتعلق بمشكلة يصعب معالجتها بسبب تعقيدها. ما يجري على هذا الكوكب له علاقة في التدخل بين التطورات الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، والقومية، والميثولوجية، والديموغرافية، الخ. لذلك فإن المهمة

الأصعب تكمن في التفكير بكوكبنا، هذه المهمة هي أيضا الأكثر ضرورة.

بداية، أريد أن أعود قليلا إلى الوراء كي أزيل سوء تفاهم يقوم على الاعتقاد بأن هذه الكلمة ((العولمة)) التي تستخدم منذ عام 1990 قد حملت على الافتراض بأن هذا التطور بدأ فقط في نهاية القرن العشرين. والحال أن العولمة — ((الكوكبة)) planetarisation المفردة التي أفضل استخدامها — هي المرحلة الأخيرة المعروفة بعملية بدأت مع الغزو الأمريكي وتطور الملاحه حول العالم بهدف إقامة أمتن الروابط بين كل أجزاء العالم. بالطبع، هذه العملية تسارعت مع ظهور الاستعمار والعبودية اللذين يشكلان حقبة طويلة جداً من التاريخ الإنساني. في الواقع، لم يتم القضاء على العبودية إلا في القرن التاسع عشر بينما كانت عملية إنهاء الاستعمار تتعمم بعد منتصف القرن العشرين.

إن المفارقة في هذه الحقبة من التاريخ الإنساني القاسية جداً هي أن هذه الأفكار بوصفها أفكاراً استتهازية كان مصدرها دائماً بلدان الهيمنة نفسها. على سبيل المثال، توصل بارتلمويوس لاسكازاس Las Casas وهو كاهن إسباني إلى إقناع الكليروس الإسباني بأن هنود أمريكا أناس طيبون وإنهم كائنات بشرية، بالرغم من أن المسيح لم يصل إلى البقاع الأمريكية. ويؤكد مونتانيه Montaigne بأن حضارتنا ليست بالضرورة متفوقة. بنفس الطريقة يثبت مونتسكيو

Montesqueu بأننا نمثلك رؤية انتوغرافية عن الفرس الذين ربما يمتلكون، بدورهم، نفس الرؤية حول الذين يقيمونهم. لقد تطورت مع إنسانية عصر الأنوار الأوروبية الفكرة التي بموجبها يغدو الناس متساوين في الحقوق. وانطلاقاً من نهاية القرن التاسع عشر حاولت الأفكار الدولانية التي صاغها فيكتور هيجو، احتفل عام 2002 بمرور مائتي سنة على مرورها خلق الولايات المتحدة الأمريكية كمقدمة لظهور الولايات المتحدة العالمية.

ثمة سيرورة مزدوجة: سيرورة المهيمن وسيرورة المستطفل، الذي ينتزع من المهيمن كل مظاهره القاسية. هذه الظاهرة تتم انطلاقاً من اللحظة التي يطالب فيها المستعمرون بالحقوق باسم أفكار مستعمرهم: حق امتلاك أمة، حق الإنسان، حق الشعب. إذاً، ماذا يحصل بدءاً من عام 1990؟ إذا كان عهد الاستعمار قد مضى عملياً، إلا أن ثمة أحداثاً تحصل وستؤثر على مجريات الوجود البشري. عقب نهاية الاتحاد السوفيتي وإفلاس الاقتصاديات البيروقراطية، أصبح سوق الدولة عالمياً، أي كونياً وأدير من قبل الليبرالية. فالسوق التنافسي بوسعه ليس فقط ضبط الاقتصاد إنما أيضاً معالجة القضايا الاجتماعية الكبرى. هذا الاندفاع الجديد للسوق وللرأسمالية مفعم بالدينامية لأنه، من ناحية، سوق جديد جيوغرافيا ومن ناحية أخرى يغدو الإعلام بضاعة كالشمس، كأوقات الفراغ، كجسد إنساني. الجميع يدخل إلى دائرة

البضاعة، بمعنى آخر يجتاح الاقتصاد جميع القطاعات البشرية. في الوقت الحاضر، يجعل تطور وسائل الاتصال الانتشار الفوري للأخبار في كل أجزاء كوكبنا ممكناً. بهذا المعنى، أنه المظهر التقني والاقتصادي في الوقت ذاته الذي يميز العولمة mondialisation، العولمة المرتبطة بالفرز السياسي عبر النظر إلى تطور الديمقراطية في بلدان الاتحاد السوفيتي السابق. كذلك عرفت أمريكا اللاتينية انفتاحاً سياسياً مع سقوط الديكتاتوريات غير أن هذا السقوط كان أكثر هشاشة. بيد أنه لا بد من تبيان مقاصدنا مذكرين بان هناك عواقب تستمر انطلاقاً من الحقبة الاستعمارية الطويلة، وأن الاختلال في المساواة يبقى حاضراً بين الأطراف المختلفة من العالم.

العولمة كظاهرة ربما تساهم في توحيد كوكبنا. في الواقع، إنها تروج في العالم بأكمله اقتصاد السوق، العلم، التقنية، الصناعة، إنما أيضاً قواعد ومعايير العالم الغربي. هذه العملية التوحيدية سيعمم عملية معاكسة تظهر مع ظهور معارضة لهذه الوحدة بغية الحفاظ على هويتها الثقافية، القومية أو الدينية. ستشتد هذه المقاومة مع ظهور حدث لا قيمة له ظاهرياً في نهاية القرن العشرين: أي عدم تألف العقيدة مع التقدم. في وقت سابق، كان الناس مقتنعين بأن مستقبل العالم قد يكون أفضل بفضل ما يسمى بالتطور، أو التقدم. هذه الكلمات السحرية، بالنسبة للبعض، مرادفة لتحسن وضع

العالم الذي يتجه نحو النمو الاقتصادي والصناعي. لقد كان الاتحاد السوفيتي ينبئ عن مستقبل مشرق، والغرب كان يشهد بشدة تطور المجتمعات الصناعية. هذا الاعتقاد تدد، مؤكداً لا مصداقية المستقبل. وتبعاً لبعض الأحداث يمكن القول بأن التقدم لم يتم وما تم هو الأسوأ تمثل في العديد من الظواهر الارتدادية. بذا فإن الوكلاء المنتفعين من التقدم — العلم، التقنية، الصناعة، الاقتصاد — هم اذواجيون في العمق. فالعلم ينتج في الوقت ذاته معارف، منافع هائلة، إنما أيضاً أسلحة، كالسلاح النووي: الإمكانية الأولى لفناء البشرية. بهذا الصدد، يمكن للإمكانيات المستخدمة أن تكون مفيدة في حالات عديدة، لكنها تخشى أن تتلاعب بالكائنات البشرية التي افكرتها وابتكرتها. وإذا كانت التقنية أجازت تدجين الطاقات المادية، فإنها أيضاً كرسّت وبشدة ذهنية تتأسس فقط على الواقع. إن منطقاً يناسب تماماً الآلات الاصطناعية ويطبق في المجتمعات البشرية التي هي ليست آلات بالمعنى المحدد والسطحي للكلمة. بنفس الطريقة، تجيز الصناعة إنتاج مواد على شكل سلسلة غزيرة على هيئة طبقات شعبية تتزايد باستمرار. كذلك اثبت أن هؤلاء الذين يعملون في وسط هذه المشاريع استبعدوا من خلال عملهم. إضافة إلى ذلك، تفرز المجتمعات الصناعية حالات من التلوث والفساد للطبيعة. فيما يتعلق بمسألة المنفعة والرأسمالية، كانت أفكار ماركس ملائمة جداً. فالرأسمالية أداة للتقدم لأنها تخلق بروليتاريا واسعة

قادرة على القيام بالثورة. الطبائع الارتدادية وضعت قبل ماركس باعتبار أن — على سبيل المثال — القانون المجهول للبضاعة يهدف إلى القضاء على كل العلاقات الإنسانية التي تتصف بمجانييتها. ذلك هو أحد التنبؤات الذي يتحقق بعد وفاته. ينبغي الأخذ في الحسبان أن الحضارة الغربية، المماثلة ((لـ)) حضارة لأنها حاضرة في كل مكان من العالم، تحمل في داخلها سرطانات ومشكلات. هكذا فإن الأنماط الشهيرة للتطور التي نقلتها أوروبا إلى البلدان الأفريقية أو إلى الشرق الأوسط قد فشلت. فإذا مات التقدم، حينئذ لا جدوى من المستقبل. وعندما نفقد المستقبل وعندما يكون الحاضر مقلقاً وبائساً، ماذا بقي لإنجازه؟ الطريقة الوحيدة للخلاص من هذا الإحراج هي العودة إلى الماضي الذي يكف عن كونه نسيجاً من الاقصاءات ليصبح ملاذاً. لهذا السبب، تظهر في العالم ظواهر — التي تسمى التمامية، الأصولية، القوماوية — والتي تتخذ أشكالاً مختلفة بشدة لكن لها قاسماً مشتركاً هو الظهور في الأمكنة المأزومة.

مع ذلك في خضم هذه الأزمة، ينبغي التمسك بالأمل بنمط جديد من المجتمعات، المجتمعات العالمية. فعلام تقوم هذه المجتمعات؟ إذا كان مجتمع ما يتصرف بأراض ووسائل اتصالات، عندئذ يغدو العالم أراض مع وسائل اتصالات كما لو أن أي مجتمع لم يمتلكه في الماضي. دعونا نتتبع استدلالنا: مجتمع ما يتصرف باقتصاد منظم بشدة من خلال القوانين،

والقواعد، والتدخلات لقوة عظمى، بالمنظار الدولي، عندها سيعاني الاقتصاد العالمي من غياب في الرقابة. فإذا كان لكل مجتمع ثقافة خاصة به، فإننا سنشهد ظهور ثقافة تنتشر في العالم بأكمله. على سبيل المثال، المراهقون في عدد كبير من البلدان لهم نفس الأنواق الأساسية: كالسماع للموسيقى، وارتداء الملابس، الخ. هناك ثقافة مراهقة انتشرت في العالم بأكمله. ومجتمع ما له دائماً مساحته الجنوحية الخفية underground: مساحة نشرت مافيا عالمية لها علاقة بالمخدرات التي تنطلق من كولومبيا وتصل إلى روسيا. فيما يتعلق بالخيار السياسي للمجتمعات، أصبحت الدولة قاعدة مؤسسة. وبغرابة، فإن هذه النقطة المشتركة بين المجتمعات كافة هي ما تقسمها: الدول القومية في سعيها إلى السيادة المطلقة تعارض رفع دعوى قد تكون دعوى ميتا - قومية عالمية. إذا كانت كل المجتمعات لها مواطنوها، فمن الصعب الإشارة إلى وجود مواطنين في العالم على الأقل بالقول. غير أن هناك منظمات عالمية غير حكومية خاصة بالمواطنين. على سبيل المثال، تتاضل منظمة أمнести Amnesty الدولية في العالم بأكمله التعسف البوليسي، وتتاضل منظمة السلام الأخضر للدفاع عن الكائنات الحية، والمنظمة الدولية من أجل البقاء Survival International تدافع اليوم عن الأقليات المهددة بالانقراض. ومع Seattle و Poro Alegre ظهرت حركات توصف بأنها حركات مضادة للعولمة وهي في الواقع

ليست جميعها كذلك. البعض منها تكافح من أجل عولمة أخرى لأن العالم، حسب القاعدة، ليس بضاعة، أي أنه يجب أن يكون شيئاً آخر.

لدينا بطريقة ما hard-wear لمجتمع ما وليس soft-wear، بمعنى آخر البنية التحتية وليس البنية الفوقية. فإذا كانت العولمة قد أسست قاعدة لمجتمع عالمي، فإنها غير قادرة على تدشينها، حتى أنها تمنع ظهورها. لقد سببت أحداث الحادي عشر من أيلول صدمة للعالم بأكمله. وأدرك بان ثمة شبكة خفية تمتد إلى ما وراء حدود بلدان الشرق الأوسط، سميت بشبكة القاعدة التي قررت أن تفقد صراعاً غير متكافئ ضد الغرب. وبما أن هذه الشبكة موجودة فإن هناك ما يشير إلى ظاهرة انبثاق مجتمع عالمي يؤكد على ضرورة إنشاء بوليس عالمي. لهذا، فإن ثمة خياراً يفرض نفسه: هل مبادرة بوليس عالمي ستقودها الأمم المتحدة أم الولايات المتحدة التي أصيبت في الصميم ؟ لابد من تصحيح خطأ يتعلق بعبارة: ((الحرب على الإرهاب)). لأن الحرب لا يمكن أن تتم إلا ضد دولة، وليس ضد منظمة ليست قائمة على دولة كمنظمة القاعدة. كان ابن سينا وابقراط يؤكدان أنه يجب معالجة أسباب مرض عندما يتم تشخيصه. فإذا كانت أعراض هذا المرض خطيرة، فانه لابد من خفض الحرارة. بعبارة أخرى، تكون الأعراض على مستوى الشرطة، لكن الأسباب تكون أكثر عمقاً. إن فكرة شرطة كونية ينبغي أن لا تستغني عن

سياسة عالمية. لدينا البوليس العالمي world policy وليس السياسة العالمية world politics التي يجب الارتقاء بها إلى المستوى العالمي.

اليوم، الوضع العالمي هو كالتالي: غني وفقير. والظاهرة الأساسية لا تكمن في الفقر المادي، وانخفاض الدخل، إنما في الواقع التكاملي العميق حيث هناك المعدمون المحرومون من العلاج الطبي، إنما أيضا الإهانة التي يتعرضون لها من قبل هؤلاء الذين يمتلكون السلطة. فالظلم الأكثر خطورة ليس مادياً إنما أخلاقياً، فهو لا يقاس بالدولارات، بل بمدى حرمان البعض من الحقوق الأساسية التي يتمتع بها الأقوياء. السرطان، الظلم — الذي يعاني منه شعب كان عنوان مقالة نشر في مجلة لوموند Le Monde حيث ساهمت فيها — هو النصيب اليومي للشعب الفلسطيني. إن الإهانة المنظمة التي يتعرض إليها الفلسطينيون تحس بها بشكل كبير الأغلبية الساحقة من الشعوب العربية والإسلامية. فإن بقي هذا السرطان بلا علاج، وإن لم يعترف بحق الفلسطينيين في بناء دولتهم، فإن الوضع العالمي سيزداد خطورة.

برأيي، إن السياسة العالمية تجبرنا على التغيير في مفهوم التطور، بما فيه التطور الحي والإنساني (الشكل المتملق للتطور). فكلمة ((التطور)) المقصود منها هي أن النمو التقني والاقتصادي عصب التطور الاجتماعي والإنساني، حسب المفهوم الغربي. والحال أنه يجب عدم نسيان أن في

المجتمعات الغربية المتطورة يوجد أيضا تخلف نفسي وأخلاقي وحالات عجز واضحة. إن فكرة التطور تفترض أن يكون الوضع الراهن للمجتمعات الغربية غاية كل المجتمعات الأخرى بالإضافة إلى أنه غاية كل التاريخ الإنساني: ثمة ضرب من ((فوكويامية)) معمة ومضمرة حول فكرة التطور. هنا، نستخدم بطيب خاطر عبارة الـ ((تطور الإنساني))؛ فكلمة ((إنساني))، في هذه الحالة الدقيقة، هي خالية من المعنى تماماً، أو أنها تحيل إلى نموذج إنساني غربي يحوي ربما فضائل ما. إن الفردانية، أو الديمقراطية، أو حقوق المرأة لها خصائص إيجابية. بالمقابل، إن مفهوم التطور شبه — عالمي، ويبدو أنه هو السائد. نحن نعلم أن هذا المفهوم أسطورة منمنجة من المركزة الاجتماعية sociocentrisme الغربية واقصد أنه محرك الغربنة occidentalisation الهائج. العالمية universalisme تعني أن الغرب هو الذي يرفع المصالح العالمية للبشرية. والتطور، بطابعه التقني والاقتصادي أساساً، يجهل ما هو غير محسوب، وما هو قابل للقياس كالحياة، والألم، والفرح، والبؤس، ونوعية الحياة، والجمال، والعلاقات مع الوسط الطبيعي. بعبارة أخرى، لا يأخذ بعين الاعتبار الثروات الإنسانية غير المحسوبة، مثل الكرم، الأعمال المجانية، الكرامة، الضمير. فالتصور الأعمى للتخلف يقضي على الكنوز الطبيعية الموجودة في المجتمعات البدائية والتقليدية. بلا شك هناك في هذه المجتمعات أخطاء،

وخرافات، وقصور، لكن يمكن أيضا مشاهدتها في المجتمعات المهيمنة الغربية لكنها مجتمعات مغايرة. لدينا على سبيل المثال، أسطورة التقدم، أو كذلك أسطورة أصحاب العقل التي ليست إلا أوهاما لا عقلانية. في المجتمعات البدائية، كما عند هنود الأمازون، هناك معرفة بالنباتات الشافية. بنفس الطريقة، نعد أميين هؤلاء الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، هذا التعريف صحيح، لكن هذا الكلام يوبخ هؤلاء الذين يضعون يدهم على ثقافة ألفية سابقة للألف باء

كذلك، إن التطور التقني - الاقتصادي ينتج حالات تخلف أخلاقية ونفسية مرتبطة بالتضخم في الذات الفردية. فإذا كانت الفردانية الغربية، بنظري، فضيلة كبرى في التاريخ الغربي، فإنها تتحول إلى فردانية مفرطة في الأنانية المحتدمة بفعل فقدان تضامن مع الآخر. ثمة عيوب تأتي من التخصص المبالغ فيه حيث كل فكر ينغلق ضمن قالب ويغدو غير قادر على معرفة العام والأساسي. هذا التقسيم المعمم الذي نشهده يحمل على الاعتقاد بأن نظامنا التربوي يحتوي على عيوب أساسية لأنه يقف عائقاً أمام المعارف بينما يكمن دوره في ربطها ببعض. إن تطور المساهمات الإيجابية، كحقوق الإنسان، والمسؤولية الفردية، والثقافة الإنسانية، والديمقراطية ليست متناقضة مع بينوشيه، أو مع ستالين أو مع هتلر.

فإذا كان التقدم العلمي التقني، والطبي، والاجتماعي مذهلاً، فانه لا يجب التقليل من قيمة السلطة المريعة المدمرة والتي تجد تحت تصرفها العلم والتقنية. إنها للمرة الأولى في التاريخ الإنساني حيث ثمة إمكانية القضاء نهائياً على الإنسانية. كما أن الحياة على كوكبنا هي أيضاً مهددة بالفساد: هذه الأخطار هي ثمرة تقدمنا. فالتطور، ذو النموذج الغربي يجهل بأن هذا النموذج يحتوي على مساوئ، حيث أن رفاهيته تعمم البؤس، وفردانيته تحتوي على الأنانية والعزلة وتفتحه المدني يولد القلق والملل، وقوته المنفلتة تؤدي إلى الموت النووي. ماذا يعني ذلك؟ ينبغي عدم الاستمرار في هذا الطريق وعدم التدليل إلى هذا الطريق الذي سلكناه: يجب تغيير الطريق. كل تطور جديد يفترض تحولاً، وكل تحول يفترض تراجعاً، أي عودة إلى القوى الخلاقة. دعونا نستخدم مجازاً حيويًا بغية توضيح قصدنا. إن الخلايا القاعدية التي تعمل في لحظة نمو البذرة قادرة على إنتاج أعضاء أكثر تنوعاً وأكثر تفرعاً. ومن المعروف أن هذه الخلايا القاعدية قد تكون موجودة لدى الشباب، في أعماقهم وفي أدمغتهم. لقد أوضحت بعض التجارب المخبرية إمكانية إحياء قلب فأر بخلايا قاعدية حية. بمعنى آخر، إن القدرة على الخلق توجد بصور خفية في الإنسان، هذه القدرة لها بحد ذاتها إمكانيات تجديدية — هنا استعير بصورة مقصودة هذه الكلمة من ماركس الشاب الذي كان يتحدث عن الإنسان المجدد. بهذا المعنى، يمكنني أنؤكد

بأن البشرية تتمتع بصفات افتراضية فسدت وتجمدت في الحضارات. ولهذا السبب فإن الحضارات غرقت في أوضاع معقدة وأن التجديد بات يأتي دائماً من الخارج. كان روسو يعتقد أن الطبيعة الطبيعية موجودة؛ بالطبع أنه أخطأ بسذاجة ما، لكنه كان على حق فيما يتعلق بوجود عوامل فوضى وفساد في كل حضارة وبشكل خاص في حضارتنا. بطبيعة الحال، هذه المواقف ربما مبالغ فيها. ويرى بأن المسرح ينبغي أن يلغى لأنه يفسد الأخلاق. إن القاعدة التشخيصية التي قام بها روسو صحيحة، لأن كل تقدم خاصة إذا كان مادياً وتقنياً يعتبر تراجعاً بمعنى آخر. لهذا السبب ثمة ضرورة لبداية جديدة، أي عدم الاستمرار في نفس الاتجاه. بهذا الصدد، تتخذ عبارة هيدجر بعدها الحقيقي: ((البداية ليست خلفنا إنما هي أمامنا)). أرى لزاماً علينا، اليوم، عندما نتحكم في نتائج السيورة العالمية، أن نكف عن الاستمرار في نفس الطريق ونتصور بداية ما، لكن المسألة تكمن في أن نعرف كيف.

من المعروف أنه يجب خلق تضامن على كوكبنا وإنهاء الحروب والقضاء على حالات اللامساواة الصارخة جداً. ويمكن القيام ببعض الأشياء في إطار الخدمات المدنية في البلدان الغنية من أجل المساعدة واقعياً في تلبية الحاجات في البلدان الفقيرة وليس منح مساعدات وقروض تختفي في صنفات فساد غير مشروعة. ومن المعروف أن الغرب يعاني من هيمنة الحساب، الفائدة، التقنية، فإن لم يجد إمكانية حل

المشكلات الخاصة، فماذا يجب عمله؟ أحد الحلول يقوم على تأييد بناء مجتمع عالمي أو تعزيز سلطة الأمم المتحدة. لا بد من إنشاء برلمان عالمي وأيضاً التركيز على الكفاح ضد تلوث الحياة البيئية. هذه الإجراءات ضرورة ملحة يتعين القيام بها راهنا وعلى وجه السرعة على كوكبنا. لكن ينبغي الأخذ في الحسبان بأننا نعيش في عصر نشهد فيه فجاجة أمم، ودول قومية، وشعوب وأفراد. من الصعب جداً أن نطلب من دولة قومية أو من مجلس الدول القومية أن يتجرد إرادياً من سلطتها المطلقة ونقلها إلى سلطة تتفوق عليها: وهذه هي المشكلة الكبرى التي تجد فيها أوروبا نفسها فيها. إن ظواهر سوء تفاهم بين الشعوب مرعبة، فهي تحدث عندما يظهر نزاع. فالأفراد لم يبذلوا أي جهد لفهم الآخر. والغرابة تكمن، في بعض الحالات، في أن نفهم الحضارات البعيدة أو الغريبة أكثر من حضارات جيراننا الخاصة أو أسرتنا، لأن سوء التفاهم سببه أصلاً نحن. نحن لا نمتلك وعياً بالمواطنة المشتركة التي ينبغي أن تصنع منا مواطني ((الأرض - الوطن)). إن كلمة ((وطن)) تحيل إلى الذكورة وإلى الأبوة - والأرض إلى ((الوطن الأم)). حول فكرة الوطن لدينا مادة أمومية تتعلق بنا كما نتعلق بها، ومادة أبوية تتمتع بسلطة، علينا تقديم الطاعة لها لأننا نعتقد بأنها شرعية. الأرض هي رحم، لأن الإنسانية ناتجة عن تطور بيولوجي ولد بنفسها من الأرض. البشر لهم هوية مشتركة، ليس نفس الشيفرة الوراثية، ونفس القدرة

الدماغية، والود، والصداقة وبالتالي الحقد. لدينا كذلك مصير مشترك. هذا المصير المشترك أملاه العهد الكوكبي وبالأخص التهديدات المميتة. إذا، لدينا مقومات مواطنة أرضية، لم نعيها بعد. عندما أردنا إصلاح البشرية، فكرنا بوسيلة واحدة، هي الأخلاق. والحال أن خطاب الأخلاق لم يغير أبداً السلوكيات الإنسانية كذلك التربية أو الديانات الكونية الأخرى. فالتصفيات التي كان سببها ديانات المحبة كانت هائلة: فإذا كان هناك أدنى محبة في هذه الديانات، لربما كان هناك أدنى كراهية إزاء المنحرفين، الهرطوقيين، الملحدين. ثمة طريق آخر يقوم على تصفية بنى الهيمنة للإنسان على الإنسان، وعلى تصفية الرأسماليين جسدياً ولم لا الطبقات المتوسطة، أو الفلاحين.

لا أرغب في أن أختتم قلبي بعبارات يائسة، لهذا السبب سأقترح مبدأين للأمل وسط الخيبة. عندما لا يتمكن نظام ما حل مشكلات يصادفها، فليس عليه إلا أن يموت، أو، وهذا ما يحصل، أن يخلق ميتاً — نظام — *systeme—meta* ، أي نظام أكثر غنى، أكثر قوة عبر طريقة تحويلية. ولتوضيح فكرتي، سأضرب مثلاً مستمداً من علم الحياة. نحن نعلم أن الكائن الحي يتشكل من العناصر الفيزيائية الكيميائية الناجمة عن العالم المادي: الحياة إذا ليس لها أي مادة أصلية، فأصلاتها تأتي من تعقيد تنظيمها الذي هو تنظيم ذاتي. في البدء، كان يعتقد أن الجزيئات الكبيرة *macromolecules* قد اجتمعت

وتماسكت معا في دوامة ما، حيث كانت المكونات متضامنة. هذه الدوامة الجزيئية استطاعت أن تبتكر مصدر الطاقة الذي تطور في لحظة ما. فالتعقيد وغنى المكونات هما كما المنظمة النفسية الكيميائية عاجزان على التمسك بها، لهذا ظهر نوع جديد من التنظيم : التنظيم الذاتي الذي يتمتع بصفات جديدة متمثلة في إعادة صياغة نفسها، ومعالجة الإعلام، والتحرك، أي كل هذه القدرات التي ستطور في الحياة. إن النظام النفسي الكيميائي العاجز على معالجة مشكلاته قد ابتكر ميثا — نظامه. لنفترض أن مراقباً اكتشف الأرض منذ أربعة مليارات عام. في تلك الحقبة، كانت الأرض قد أصيبت باضطرابات: ثورات بركانية، أعاصير، عواصف، زوابع. وبما أن هذا الكوكب مختل، فانه يقول: ((إنه كوكب مختل حيث لا شيء يمكنه أن يحدث)). مع ذلك فإن الحياة هنا قد نشأت. فإذا عاد نفس المراقب، سيرى أن الحيوان والنبات قد تطورا، بينما لا شيء يجعله أن يتوقع. عندما يتعلق الأمر بتغيير هائل، فإن هذا الأخير يبقى غير مرئي. مثال آخر، يتعلق بتحويل الدودة إلى فراشة: الدودة وهي تدمر ذاتها تبني نفسها وتتحول إلى كائن جديد آخر سيكون اليعسوب أو الفراشة. إنها مشكلة التحولات على المحك: كيف يمكن الانتقال من شكل إلى آخر؟ لا يمكن أبدا توقع ذلك. هو ذا العنصر الأول الطافح بالأمل. العنصر الثاني يعني أن ما هو غير محتمل يمكن أن يحدث غالباً في التاريخ. دعونا أولاً نعرف ما يمكن حدوثه: بالنسبة لمراقب

ينوجد في لحظة ما ويجد تحت تصرفه أفضل إعلام، هذا ما يمكنه أن يتوقع المستقبل. فيما يتعلق بنا، الممكن حدوثه مرئي جراء انتشار الأسلحة النووية، وصغر حجمها، وتطور الأسلحة الباكترولوجية، وفساد الحياة على كوكبنا، وتصادد النزاعات. الاحتمالات تغدو كارثية بشدة، وما لا يمكن حدوثه حصل في التاريخ أثناء حدث هائل عاشه أشخاص من جيلنا عام 1940: كان ذلك بمثابة الفشل التاريخي لفرنسا وأوروبا. في عام 1941، تدفقت الجيوش النازية على الاتحاد السوفيتي وأصبحت على أبواب لينينغراد، موسكو والقوقاز. كان هتلر يعتقد أن إمبراطوريته ستمتد إلى نحو ألف عام، ربما كان هذا التصور مبالغ فيه، لكن هيمنته ربما استمرت. ما لا يمكن حدوثه قد حدث بفعل عوامل ثلاثة. أولاً، الجيش الألماني كان مرغماً على وقف تقدمه بسبب قدوم الشتاء القارس. ثم إن هتلر الذي كان يستعد لشن هجوم في أيار من عام 1941، قد أجله شهراً كاملاً بسبب ثورة بلغراد. هذه الثورة الشعبية والعسكرية تشكلت لتعارض مرور الجيش على أراضيها حيث كان هدف هذا الجيش الالتحاق بالجيوش الإيطالية بقيادة موسوليني. القوات البرية الألمانية خسرت إذاً شهراً قبل دحر المقاومة اليوغوسلافية، بالأخص المقاومة الصربية. هل كان بوسعها الاستيلاء على موسكو لولا قدوم الشتاء؟ أخيراً، ثمة عامل آخر محدد يتعلق بالجاسوس السوفيتي المذهل سورج Sorge الذي أخبر ستالين عن هجوم مرتقب للألمان، لكن

الدكتاتور لم يصدق. هذه المرة، أخذ على محمل الجد نبأ الجاسوس الذي يقول أن اليابان كان يستعد لمغامرات في المحيط الهادئ ضد الولايات المتحدة. منذ ذلك الحين، كان على ستالين أن ينقل قوات جديدة من الشرق الأقصى وإرسالها إلى جبهة موسكو. فقد استغل فرصة لوضع جنرال جديد على رأس الجيوش السوفيتية، الجنرال فوكوف، الذي قاد الجيش السوفيتي إلى انتصار كبير ضد الجيوش الألمانية. وهكذا فإن، بقليل من الوقت، كيف تحول الممكن حدوثه إلى ما لا يمكن حدوثه وما لا يمكن حدوثه إلى الممكن حدوثه. دعونا نحاول الإيمان قليلاً بما لا يمكن حدوثه، لكن دعونا نحاول أيضاً العمل لصالحه.

مداخلة الوسيط الفرنسي فرانسوا ليفونييه Francois

:L'Yvonet

قبل إعطاء الكلام إلى المجلس، أود أن، أشدد على أهمية كلمة ادغار موران القادرة على الانتقال من الكوزمولوجيا إلى البيولوجيا، إلى الانتروبولوجيا مروراً بتغيرات على المستويات كافة، وبرؤى مختلفة.

السيد ادغار موران، إنك تعارض فكرة الخلاص في الإنجيل المسيحي (مادما سننجو جميعاً، فلنكن أخوة)، انجيل الهلاك: مادما سنضيع جميعاً، لنكن أخوة. ألم يكن هناك نوع من رؤية تراجيدية تحيلنا إلى سنيك Seneque، رؤية ضد الأمل ((عندما تتسنى التمسك بالأمل، هل يمكنني أن أعلمك أن

تتشدد إليه؟)). أليس في الوقت الحاضر يجب محاولة بناء مستقبل غير محتمل؟

ادغار موران: عندما كنت أشير إلى الإنجيل كنت أتحدث بصفة شخصية: أنا لا أقوم بالتبشير ولا أسعى إلى فرض هذا الإنجيل. أردت فقط أن أعبر عن الفكرة التي تقول بأنه ينبغي عدم نسيان نهايتنا الأرضية.. من جهة أخرى، كل علم الكونيات الراهن يشير إلى أننا نسكن فوق كوكب صغير، فكوكبنا محيطي. لنسلم أن هناك رحلات طويلة سياحية كونية، فالأرض لا تدرج في هذه المسيرة. نحن ضائعون في هذا العالم: إنه الهلاك. لكن هذه البقعة الضائعة هي عالمنا بنباتاته وحيواناته. هذه البقعة هي بيتنا المشترك، وحديقتنا التي يجب حراثتها بالمعنى الأوسع من المعنى الذي عبر عنه فولتير في نهاية كتابه كانديد Candide، بمعنى آخر، الأمر يتعلق بتهديب العلاقات الإنسانية. الهلاك هو أيضاً شيء إيجابي، فهو يدفعنا إلى الوقوف على مصيرنا الأرضي. ثمة معنى آخر يرتبط بكلمة الهلاك، إنه الوعي بالإنسان homo sapiens وبمصيره الفاني. نحن محكومون بالموت ونحن نعلم ذلك. أعتقد شخصياً بأن لا وجود لحياة بعد الموت. كالشمس، سيموت كوكبنا الأرضي، لكن هذا ليس احتمالاً مباشراً. فالشمس لها فترة زمنية من البقاء وقد تمتد إلى أربعة مليار عام، لهذا فإن لدينا الوقت الكافي للقيام برحلات كونية، ورؤية كوكب غير مسكون والإقامة عليه والتخلص من موت

النظام الشمسي. إن جهد التمديد المتناقص، وقوى التبعر التي ولدت من الانفجار الأولي الذي سمي بالانفجار الكبير Big Bang قد تتراجع، بينما قوى التمرکز التي هي قوى انجذابية قد تجمع ثانية عالماً وربما تنتج انفجاراً جديداً يسمى Big Crust : سيكون هناك عالم آخر لن يشبه عالمنا. أخيراً، أعتقد بأن المادة المرئية صغيرة جداً في الكون، و ان هناك مادة أخرى تسمى، الطاقة السوداء التي تدفع إلى التبدد وإلى التمدد بشدة عالية. مما يعني أن الكون موعود بالتحطم والموت. وكما كان يقول الشاعر اليوت Eliot ((سيموت العالم وسط نوع من الاضطراب)). إذا، لا بد من قبول الفكرة التي تقول بان الهلاك يتشكل من معطيات لا يمكن التملص منها. الرد على الموت، نعرفه جيداً: المشاركة الحية، الحب. بهذا الصدد، يشير موباسان Maupassan، في أحد مؤلفاته، قوي كالموت، إلى الموت؛ حتى لو كان الحب لم يعد أقوى من الموت، فانه يبعث على الحياة. وأخيراً، أقول بأن إنجيل الهلاك ليس هوة يائسة، فلا بد من تعلم العيش في وسطها بالضرورة.

حوار مع ادغار موران

سؤال : هل منطق النظام الرأسمالي الذي وصفته هو منطق ميكانيكي يتملص من كل إرادة إنسانية إصلاحية؟

ادغار موران: المنطق الرأسمالي الذي أثبت هذا النظام في التاريخ يثير قوى معاكسة. في الماضي، نقل إلى الأوروبيين إجراءات وضعت حداً للسلطات. كانت الرأسمالية مهيمنة في الدول ذات الحكم المطلق: هذه المجتمعات كانت تتأسس على مبدأ الحوارية بين عالم الرأسمال والعالم المدني. إلا أن هذا

المبدأ تحطم مع انفجار السوق العالمي انطلاقةً من عام 1890. لهذا فان المنطق الميكانيكي للرأسمالية سيجد، بسبب تجاوزه وقصوره، العناصر، والقوى التي ستكون موازياً لها. حالياً، ثمة اقتراحات وأعمال في موضع التنفيذ، كالاقتصاد الجمعي، أي تطور الاقتصاد التعاوني، التبادلي مع اقتصاد السوق. هناك طرق الرقابة مطلوبة على المستوى العالمي، إنما مازالت في عداد الفرضيات. المنطق قوي جداً بحيث انه يحتاج مجالات عديدة. على سبيل المثال، يعتبر مجال البحث البيولوجي قطاعاً مهماً، فقد دخل إلى المنطق الاقتصادي للربح والصناعة، غير أنني اعتقد أن هذه الظاهرة حركة وليس هنا يكمن تشاؤمي. إن احتمالية الانتصار المطلق للرأسمالية لا تزال بالنسبة لي غير مؤكدة، لكنها احتمالية هامة حيث هناك قوى متنامية ضدها، قوى تنهض وتنهض باستمرار. هذه الحركات الذاتية التي لا ترى مشكلتها الخاصة مفككة وبالتالي عاجزة عن خلق رد عالمي على المشكلة العالمية. اليوم، ينبغي السير نحو البحث عن جواب أو أجوبة متعددة على مشكلة تخصنا جميعاً: وهذا هو درس سيائل Seattle.

- العولمة تبدو مشكلة غربية حصراً، لأن العالم الذي نتحدث عنه عالم بالنسبة للإنسان الغربي هو المقيم الوحيد في عالم ينتمي إليه. لقد ذكرت هيدجر: لديه تعريف عن الحيوان بأنه أشبه بالفقير في العالم، بينما الإنسان كائن غني في العالم. فمفهوم العالم يشكل عنصراً خاصاً بالإنسان. عندما يشاهد

الإنسان الآخرين يراهم دائماً على صورته. المشكلة التي تطرح، هي أنه من الصعب الإحاطة بحدود الغرب، لأن النموذج الغربي انتقل جيوغرافياً.

ادغار موران : العولمة mondialisation ولدت اثر انتشار بعض القوى الصغيرة في أوروبا الغربية، فهي تترجم بالغربنة occidentalisation، غربنة العالم التي تفتقر للتكامل. أثناء عملية الغرنة، وعبر الهيمنة، ثمة تبادلات تجارية: ليس فقط الطماطم، والذرة، والبطاطا التي تصل إلى أوروبا، إنما أيضاً القمح، والأحصنة التي يتم تصديرها إلى بقاع أخرى. كل ذلك لا يوضح الهيمنة، أي نظام الهيمنة في المبادلات بصورة أساسية. لنأخذ النموذج الإيراني الذي رفض الغرنة والذي يسعى إلى امتلاك الأسلحة الأكثر تطوراً. العالم تغربن بفعل توجهه إلى السباق في مجال التقنية. فإذا كانت الدول القومية قد حذت حذو النموذج الغربي، فإن هذا النموذج من الدولة القومية الغربية قد وجد لمواجهة الغرب: ثمة مظهر جدلي وثنائي الجانب بالنسبة للعالم الذي يستعمل التقنيات وسلطات الغرب، إنها طريقة في إرادة الوجود تجاه هذا الغرب. كذلك هناك رؤية غربية مركزية ملازمة للعولمة. إن إحدى الطرق القائمة على التملص منها تقوم على فكرة مفادها أن الغرب ليس صاحب العقلانية، هناك في كل حضارة أشكال عقلانية. الغرب ليس المكان الذي أبعدت عنه الأسطورة، فهو

الذي خلق الأساطير: أسطورة العلم، العقل، التقدم. أطمح، في إطار العالمية، إلى أن يخلق اتحاد حضاري وثيق بين الشرق والغرب، الشمال والجنوب. لقد اقتنعت بان تاريخ العالم الغربي قد قارب إلى الوعي بالعدم. فتدفق القوة التقنية أدى إلى قصور بحيث أن بعض الشعوب في الغرب باتت تأخذ ذلك في الحسبان بصورة لا شعورية. وأمام هذا البؤس لجأ هؤلاء إلى أنماط مختلفة من الحكمة لإيجاد انسجام وملاءمة فراغ داخلي، كاليوغا وغيرها. إن فائدة الحضارة الصينية بالنسبة إلينا، هي أنها لم تعرف الوجدانية (الإيمان بالإله الواحد) لأسباب تاريخية، لكن حصلت أيضاً أشياء مرعبة. فالشمال طور إلى حد بعيد عالم فكر تأسس على الأرقام والتقنية، والغزارة التي أفضت إلى فساد في الأفكار حتى النوعية منها. والجنوب، المشهور بتخلفه وانحطاطه في عدة مجالات، لم يتعرض للغزو الهيمني من الشمال ويحافظ على احتياطاتها بالمعنى النوعي: وأقصد الجنوب المتوسطي. غير أنه لا ينبغي أن نمنع الجنوب من حيازة التقنية والرقميات، المسالة تكمن في أنه يجب أن لا نجعل من أنفسنا عرضة لهيمنة التقنية والرقميات. من المفيد نزع قناع كل ما هو غربي — مركزي تحت غطاء من المظاهر العالمية، بما فيه بالنسبة إلى الغرب نفسه. بالتالي يمكن الاعتقاد بأن القدرات النقدية الذاتية ولدت في خضم هذه الحضارة، وكان الأمر مقصوداً حين استشهدت بمونتييني

Montaigne أو مونتسكيو، مثلما يمكنني الإشارة إلى ليفي — شتراوس، أو عالم الإسلاميات جاك بيرك أو كذلك هنري كوربان Corbin. إن مزايا العقل متعددة، فلا يوجد إلا العقل بمنطقه المنيع، وبقدرته الاستقرائية والاستنتاجية. كذلك فهو يضم قدرة نقدية يجب أن لا تقتصر على نقد الآخرين، قدرة نقدية ذاتية هي أكثر ملاءمة حتى لو أنها بقيت أقلوية في الغرب: هذه الهدية الجميلة يتعين تقديمها إلى البقاع الأخرى كافة.

- إنك تتحدث عن القوى الناهضة، أجذك متفائلاً جداً. خلال حديثك، حاولت أن تتمسك بالأمل لكنني أجد صعوبة أن أصدق ذلك. حتى لو أن هناك قوى ناهضة، فإن ذلك لا يعني شيئاً، أنا متأكد من ذلك. أنا خائف من الغد، اعتقد أن السلطة، في شموليتها، تم الاحتفاظ بها من قبل الولايات المتحدة.

ادغار موران: أعتقد أنك لم تفهمني جيداً وأنت ارتكبت خطأ حين اعتبرتني متفائلاً. لو كنت متفائلاً لقلت أن التفاؤل سيسود، لهذا فإنني لم أزعم ذلك أبداً. من كان بوسعه أن يتوقع انهيار الاتحاد السوفيتي؟ لا أحد في تلك الفترة كان بوسعه أن يتصور أن حدثاً كهذا يمكن أن يقع. بنفس الطريقة، الولايات المتحدة ليست بمنأى عن التناقضات الداخلية، ولا حتى انتكاسات. فليس كل شيء تحت الهيمنة الأمريكية، هناك أشكال مقاومة يمكنها أن تتطور بموازاة هذه الهيمنة على سبيل

المثال، أوروبا. عندما تتحدث عن الظاهرة الأمريكية americanisme، الشكل المتطور على الظاهرة الغربية، فإن في هذا البلد حيث تطور اقتصاد مذهب، وتطورت الرأسمالية، والقوة التقنية والعسكرية. إنما لا شيء ابدى. كلامي ليس متفائلاً، حتى في فرنسا ثمة قوى ثقافية تتاهض الغزو الهيمني، وإلا فإن ظاهرة مطاعم الماكدونالد اجتاحت كل شيء. ما أقوله دائماً هو أنني لست مطمئناً، انتظروا ما هو غير متوقع، اعتقد أن المستقبل غير متوقع، الأسوأ قد يحدث. من جهة أخرى، أنهى كلامي بطريقة يغلب عليها التشاؤم مؤكداً أن الشعوب ليست ناضجة.

- هل هناك اختلاف بين فكرة الهوية الإنسانية بين ادغار موران ومبدأ الإنسانية بين فرانسوا غيبو Guillebaud؟

ادغار موران: بين هذين المفهومين، ثمة اختلاف وتباين. أعرف الإنساني انطلاقاً من تعقيدها الخاص، حيث طبيعتها بيولوجية وميتا بيولوجية، بينما غيبو، في كتابه، يدافع عن الإنساني اللاببيولوجي ضد التطورات المختلفة للعلوم. غيبو، برأيي، يرى الأخطار حين يطبق النموذج العلمي على الإنساني. على خلاف غيبو، أعتقد أننا آلات حرارية: نحن نعمل في الدرجة السابعة والثلاثين، نحن لسنا آلة مدهشة بقلب يخفق، ورئتين يتففسان، الخ. الآلة الإنسانية ليست مبستذلة، وليست محدودة. كل الشخصيات التاريخية

عبارة عن آلات غير مبتذلة: المسيح، محمد، دوغول De Gaulle. قطعاً، أتفق مع غيبو حول الفكرة التي تقول بأننا لسنا آلات تماماً. إلا أن الهوية الإنسانية تضم بصورة أفضل الطبيعة الإنسانية المزدوجة التي، من جهة، تعبر عن الوعي، عن الفكر، وعن طبيعة العالم المادي والبيولوجي من جهة أخرى.. في الواقع، نحن، أنا وغيبو، متفقون مع خلافتنا على أفضل طريقة للاتفاق.

- ألا تنتقل عولمة مؤملة محلياً؟

ادغار موران: بلى، هذا ممكن، لكنني لست موافقاً على الفكرة التي تقول بأنه يجب التفكير بالشامل وليس بالمحلي في الوقت الذي لا ينفصلان عن بعضهما البعض. لدينا حالات حيث يمكن للتحويلات المحلية أن يكون لها تأثير على العالمي وبالعكس. أعتقد أننا أدركنا أهمية المحلي في قضية البيئة، أي أهمية الواقعي لعمل مواطني ممكن. المشكلة الكبيرة تكمن في استحالة إبعاد فكرة سياسة عالمية لازمة، ما أسميه أخيراً سياسة الحضارة أو سياسة الإنسان. بهذا الصدد، ألقت كتابين، مقدمة في سياسة الإنسان ومقدمة في سياسة الحضارة، كل ذلك يأتي بهدف استبدال التطور. أرى أن المحلي يصبح نموذجياً، على سبيل المثال، في أماكن كثيرة من فرنسا، هناك أناس يعيدون الحياة لبحيرة كانت ملوثة، أو إعادة الحركة لقرية عبر تشجيع إقامة مراكز

تجارية فيها بفضل إعانات مالية. ثمة اتحادات للعاطلين عن العمل تتشكل للسعي لإيجاد عمل جديد قائم على التضامن والمساعدة. يوجد إذاً كثير من المبادرات لكنها لا تتعارف على بعضها البعض. ليس هناك أي حزب سياسي يهتم بهذه المبادرات أو يحاول أن يجمع قائمة بهذه المبادرات. فالمحلي يلعب دوراً هاماً لا يظهر شيء ما يتجاوز المحلي، بالتالي ينبغي أن تتوجد هذه الحياة المحلية.

- بعد الأخذ بعين الاعتبار الحالة الخطيرة التي وصفتها عن واقع قرينتنا العالمية، هل يمكن الاستغناء عن الإيمان، العقيدة، النفوذ انهائلة التي ربما بوسعهم أن يوجدوها بغية حل كثير من المشكلات ؟

الدغار موران: الديانات الكونية — كالمسيحية، الإسلام، البوذية — تخاطب الجميع، أيّاً كان أصل المؤمنين. إنها الديانات التي أصرت على قيم العلاقة مع الآخر، سواء كانت قيم محبة القريب، المؤثرة جداً في المسيحية، أو فكرة الرحمة المتينة جداً في الإسلام. هذه الديانات لها فضائل واسعة، علقتها فقط تكمن في توقعها، أو في انغلاقها، في تعصبها، في رفضها للديانات الأخرى: شاهدنا تبعات الحروب الصليبية حتى أنها يخشى أن تتدلع من جديد. برأيي، هذه الديانات كان عليها أن تتحد انطلاقاً من نقاطها المشتركة: كالعالمية، التضامن، المحبة، بالمعنى العميق لكلمة ((الفضيلة))، التي

تصدر من القلب، الرحمة التي ربما تلعب دوراً هاماً جداً على
كوكبنا. ألا تخشى الديانات أن تتغلق اليوم، كل ديانة منها
تدعي أنها المطلق؟

مقامات العنف

تعليق: ابراهيم محمود

1- les événements du 11 septembre : لماذا الصيغة جمعية، حيث المتداول أكثر هي عبارة (حدث سبتمبر)؟ بودريار يقدّم الحدث في كثافة حضوره، وبوصفه الحدث العصي على التوقع والوقوع، الحدث الذي ما كان يجب أن يكون، ما كان يتوقع هو ذاته أن يكون فعلاً الحدث تبدى علاقة الذي يعرفنا بحدثيته كإمكانية وقوع، ومن خلال الدلالات الحافة به ومضاعفاته المستقبلية وميثولوجيات المدرك الخاص به، ونسبه (الأمريكي) إن جاز التعبير، غموض، لغزية، استفزازية كل ما تقدم تبقينا في غيبه الحدث بوصفه أكثر من حدث، أي أن هناك (حدثات) إن جاز التعبير، ومن

باب التمايز، حيث لم يعد، أو لا يعود بالإمكان تناول الحدث لغوياً كما هو حين التعرض إليه اصطلاحياً أو دلاليّاً، كونه يعرّف بمفهومه من خلال موقعه، تاريخه، ممثليه، فثمة حدث هو افتراض حدث، وحدث هو بين بين، وحدث هو الحدث الحدث بامتياز، وحدها القوى الكوكبية، السياسية تستتطق الحدث وتمنحه علاماته الفارقة بروزاً أو ضموراً. أليس ما جرى يشي باختلال ما يعتبر الأصل المفاهيمي للكلمات، وانزياح المعاني ولاثباتية الدلالات؟

المحدث، كنيته بالمقابل، لهذا فإن جماعية الحدث ترتبط بما هو فجائعي لاحقاً أيضاً، ليس مما لا يلزم توقعه، وإنما مما يمكن أن يحدثه الحدث وفي هذا الوقت بالذات، ليس على صعيد قاري بل وكوكبي كذلك من متغيرات، وقد حدث ذلك.

2- ما علاقة نظام عالم *ordre du monde* بالعمارة *architecture*؟ هذا ما نتلمسه في عبارة: كل منظومة قيم غربية *valeur occidentale de tout un système*، فالذي حدث لم يكن القتل مستهدفاً فقط، وإنما إحالة الرمز المعماري الي المعتبر ترجمان حضارة مجتمع وثقافة عينية (من شامخ عال إلى خفض) كما يقال، هو تحرير السماء، ربما، قبل الأرض، مجازياً من لوثة مقصودة ومسماة بالاسم، وفي نيويورك بالذات، المدينة المكثفة بالدلالات، المدينة الجديدة كاسم يتجدد وما هي تتعرض لانخساف، ومن فوق، ثمة بعد ميتافيزيقي (غيبى)، أو لاهوتي إيماني لصيق

باللجنة (استحضار لإرم ذات العماد من بعض النواحي)، ضرب العمران النموذجي مع ضرب القائم عليه عالمياً وهو البعد التجاري، مع رفض الصورة الواقعية فنياً، حيث مانهاتن أكثر من تجسيد للفن، ثمة استعراض قوة في المكان وفي المحيط البصري، تهديد لكل ما هو امتداد له. وفي حالات الخسف أو الرؤية ذات الطابع القياماتي، كما تجلت في نصوص كثيرة تناولت الحدث المذكور (دريدا، بودريار، موران إلى حد ما)، تبدو العين مقررّة ماهية الحدث على الصعيد التأثيري، فالمباشرة والكثافة الدلالية لرمزية العين تشكلان قيمة كبيرة في إبراز الحدث عبر ربطه بالمكان، إذ أن الإطاحة المكانية هي المدخل الأول لفهم ظواهر مختلفة: حربية، طبيعية كالزلازل والبراكين والانهيارات والفيضانات، والتي أضيفت عليها تاريخياً مسوحاً ماورائية نظراً لكارثيتها، ولحفظها.

هذا ما تجلّى لاحقاً، وهذا ما نلتسمه في المتكرر من جهة الإشارة إلى نوعية الفن الذي تعرض للتهديد والوعيد، وقد نفذ جزئياً، ويعني أن التهديد الأعظم قائم.

للتأكيد نقرأ ما كتبه في مكان آخر (فقد علقت الحوادث إضرابها، حتى أننا جعلنا، مع عمليات نيويورك ومركز التجارة العالمي الإرهابية وأثرها، حيال الحدث المطلق، أم الحوادث، الحدث المحض الذي يجمع في صلبه كل الحوادث التي لم تحدث قط.

في إثره، اهتز رهان التاريخ والقوة، لابل اهتزت أيضاً
شروط التحليل)

- انظر حول ذلك مقاله "ذهنية الإرهاب" المنشور في كتاب
تجميعي هو (ذهنية الإرهاب: لماذا يقاتلون بموتهم)، إعداد
وترجمة: بسام حجار، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1،
2003، ص17.

هذه المحضية purisme (من المحض pur) في لغتها
النافذة الأثر لا تخفي بعدها العقيدي، أو حالة الطهرية
puritanisme تجاوباً مع الحدث، حيث صيغة الكلام / الكتابة
في الجمع المتكلم تحيل الحادث إلى الملكية المضروبة أو
المهددة، والتهديد بالتقنين، فالخصوصية عممت هنا، إذ الكاتب
فرنسي، والتفعيل الحدتي لا يخص قيماً أمريكية هنا، بقدر ما
أن الغرب مستنفر أيضاً.

لكن ثمة رثاء للمكان المنمذج أمريكياً - غربياً، خوفاً على
البذخ النقاني دون مراجعة حساب - حسية ترقباً لما يمكن أن
يعقب ذلك، حيث الرمز القابل للضرب وما يمثله مكشوف في
عراء البصر والبصيرة، وأشير إلى ذلك منذ عقدين من الزمن
وأكثر، حيث الرؤياوية في مضمارها النيتشوي قاهرة هنا
(فنيورك هي كينغ كونغ، أوالبلاك - أوت، أو القذف العمودي
tower inerno، ولوس انجلس هي الانقصاص الأفقي،
انكسار وانزلاق كاليفورنيا داخل المحيط الهادئ earth
quake، والتشنجي والاستبدال العنيف. فما عادت السماء

تسقط على {اسك، وغنما المناطق التي تنزلق. إننا في كون شطور، أطواف جليد رضراضة، انسياقات أفقية. إن أثر الزلزال العقلي كذلك، الذي يترصدنا هو (نوع من) الانخساف (العضوي) انفلاق الأشياء جد المنقبضة، انشطار لأشياء التي تضيق، التي تتعقد على فراغها. لأنه في العمق () لم توجد الأرض أبداً، وإنما فقط أدمة مجزعة، ولا العمق، الذي من المعروف أنه في انصهار. إن الزلازل تقول ذلك، فهي موسيقى الموتى للبنية التحتية. لن نترصد بعد الكواكب ولا السماء، وإنما الآلهة الأسطورية التحتأرضية التي تهدد بالانخساف في الخواء..)

- انظر حول ذلك (الانذهال والعطالة) في مجلة (العرب والفكر العالمي)، بيروت، العدد العاشر، 1990، ص127.

المقطع الآف الذكر في طوله النسبي يواجهنا برعب الحدث المتعدد المصادر، ولكنه في العمق ينفتح على المحيط الخارجي للعقل الأداتي، بوصفه العقل المغيب المنذر بالخراب والمستوجب الحيلة مسبقاً.

3- ما علاقة مانهاتن بالنظام الرأسمالي، ما موقع البحر الدلالي هنا؟

تبدو الرأسمالية في البعد المعماري لمانهاتن حقيقة بصرية، إنها السيطرة الفضائية على الأرض، فمانهاتن برج محلق عالياً، انبثاق أرضي منمذج، وهذه البعد المعماري تجسيد لبروميثيوسية على الطريقة الأمريكية، انقلاب على المكان

نفسه في صيغته المعتادة، والتحقيق الأكثر عجائبية لخيال خلاق رأسمالياً، ودخول في الحداثة وعبور لها إلى ما بعد الحداثة واستئثار بجماليات الصمت بالذات، والنظام الكابيتاليسي (أحيل هنا الـ cap كحامل ومتضمن قوة فكرية واستراتيجية إلى الرأس والـ talismanique إلى الطلسم حيث الرأسمالية في طابعها الأمريكي حيث لحظة المفارقة لما هو أوروبي، ومعانقة للمثال المرصود والمنشود أمريكياً) إذ تبدو الرأسمالية وعبر النموذج المعماري الفائق التشكيل وقد كانت بمثابة اللاحقة ism الأوروبية، ثم غدت السابقة الأوروبية ولتتبدى فيما بعد الحالة الأكثر كونية والتي لا سابقة لها، تبدو هي المتفردة وقد تتحت (رسملة العالم capitalism du monde) لتحل محلها عبارة (أمركة العالم Amercanisation du monde)، ولهذا فإن بودريارد بقدر ما يفصح عن رفضه للبعد الوحشي المتصحر (وهذه المفردة الأخيرة عزيزة عليه حيث يستعملها كثيراً) يعبر عن تقديره العميق للرمز المحلّق.

علينا الحديث هنا عن الطابع الثقافي والفكري، والحقيقة الديوانية والتدبيرية لما هو أمريكي، حيث البحر اللصيق بمانهاتن بمداه المفتوح والأزرق وكأنه يوغل في اللامتناهي ويخترق اللاتناهي ويغيب الميتافيزيقا ذاتها كمفهوم مفارق، من خلال تجاوز عالم ما وراء البحار، إذ أن أوروبا ذاتها وقبل غيرها، أمست، مع العالم الآخر، في (ما وراءها)، ولم تعد أمريكا محصورة في الركن الأقصوي (ما وراء البحار) إنما

بات العالم نفسه حاضراً كمفهوم داخل حدود المدى المجدي لها، ومحصوراً بها، والخشية في هذه النقطة، أي في أن الرغبة الرأسمالية في احتواء المكان قد استنفدت المكان نفسه، والحدث الذي ارتبط بمانهاتن لم يكن سوى التذكير بالكارثة المترتبة على تجاوز الحدود.

يغدو مانهاتن قيد الانفجار والانهييار، والبحر قيد الثوران، عبر العقلانية الموعلة في التقانة الاستعراضية، والمحروسة على القيام بأي عمل إرهابي.

أذكر هنا ما أبدعه "أدونيس" قبل الحدث بأكثر من عقدين من الزمن، وهو يتبصر في نيويورك القيامة القادمة وعلى طريقته، وهو يخاطب في بعض فقرات قصيدته القصيدة (قبر من أجل نيويورك)، الأمريكي المختلف ويتمان: ويتمان،

لم أرك في منهاتن ورأيت كل شيء. القمر قشرة تقذف من النوافذ، والشمس برتقالة كهربائية. وحين قفز من هارلم طريق أسود في استدارة قمر يتوكأ على أهدابه، كان وراء الطريق ضوء يتبعثر على مدى الأسفلت، ويغور كالزراع بعد أن يصل إلى غرينبش فيليج، ذلك الحي اللاتيني الآخر، أعني الكلمة التي تصل إليها بعد أن تأخذ كلمة حب وتضع نقطة تحت الحاء.

قصيدة مجنونة، هذيانية استبصارية غير مألوفة تعني المستقبل، الحدث الذي يستوجب الحدوث في ضوء الحدث

المتجلي بصرياً كرمز وعلامة هنا، وهي تقرأ في ضوء الانهيار الكارثي، وتبدو الكتابة البودريارية أدونيسية تماماً. وفي الوقت نفسه فإن نيتشه رغم كل ما يقال عن العمق النهليستي في كتاباته، يعتبر مأخوذاً بالقياماتية ك لحظة رؤيا (فجأة - مثلاً - يتبدى كل شيء خلاف ما هو عليه) حتى على صعيد التعبير وفداة الصورة المأسوية، يكون في هذا المنحى، ولذلك تبدو النزعة الإيمانية المسيانية مؤثرة في نصوصه المختلفة، توخياً لما لا يراد له أن يحدث، وتمنياً لما هو مبتغى، وبودريار في إثره ولكن ليس كمقلد وإنما كمفكر يعاين الحدث وانفجار المعنى (من النوع القياماتي) فيه، والذي يهدد الكون في مجمله، دون أن يستثني - ربما - مفعله (أمريكا هنا)، نظراً لهول ما يمكن أن يحدث.

4- لماذا الحديث عن البرجين من منظور حسابي وعلى صعيد وصفي؟

بودريارد مأخوذ بالوصف، لكنه ليس ظاهريانياً، إنه المتمعق في الأغوار.

لنتحدث بدورنا عن البلاغة البصرية للمشهود له عبر البرجين التوأمين (وهذه الصيغة تنفتح على ما وراء المنظور، عن كثافة زمنية، واشتقاق نسبي، حيث القوة الرمزية مضاعفة، وفي الوقت نفسه يكون انهيارهما فاجعة مركبة)، إذ يمكن ملاحظة الرياضيات التي تشكل المدخل الحضيف إلى قرن الحداثة وما بعدها، وقد بدت في هيئة السنام الجملي الحامل

لهودج حضارة تقانية متأرجحة من خلال البنية العمرانية بالذات، والتي تصيغ بيان التحدي الخارق لميسمها

الرأسمالي، مؤطراً بكامل العدة المعززة لتحسينها، وكان في الإجراء الرياضي حضور المقاييس الكاملة الدقة وقد طبقت على أرض الواقع، وقد بدا المستقبل المجال الحيوي المفتوح للنظام الداعم لها، النظام الممضي عليه رأسمالياً وهو في نوع من تأييد الذات أو أبدية الاسم. ولهذا نجده يقول في مكان آخر، مشدداً على مضمون فكرته بخصوص حالة اللاتوقع لما جرى سواء من قبل المعنيين بالحدث أو الذين كانوا وراءه (وبأي حال، الأرجح أن الارهابيين (كما الخبراء) لم يتوقعوا انهيار البرجين التوأمين الذي مثل ، أكثر بكثير من ضربة البنتاغون، الصدمة الرمزية الأشد. لقد شهد الانهيار الرمزي لسستام بأكمله جراً تواطؤ غير مرتقب وكأنه بانهيارهما من تلقائهما، كأن بانتحارهما هذا، انضم البرجان إلى اللعبة لكي يبلغ الحدث تمامه).

- انظر (ذهنية الإرهاب)، المصدر المذكور، ص 20 هذا اللاتوقع وعبر اللعبة الإعلامية حيث لم يعد بإمكان الواقع سوى أن يكون عرض حالة إزاء فخامة وشراسة ومتاهة المتخيل، هو إفراز العقل المعاش خارج ما يعنيه بوصفه الآخر، وقد صدم بما يخصه كمفارق له في الحالة هذه، وهذا يعيدنا إلى المقولة البودريارية المشهورة حول أن حرب الخليج الثانية لم تقع رغم وقوعها كان هناك لعبة احتراف فائقة

الخيال، وحدثنا من طرازه، مع فارق أن الحرب غطت منطقة بأكملها، أما الحدث الذي تم في سرية تامة وصمت، فقد انفجر كجني القمقم ليجعل العالم كله ساحة حربه.

5- ما علاقة بلاغة المرأة *la rhetorique du miroir* بالأبراج التي فقدت كل وجه وواجهة لها؟ ما علاقتها بالمدينة التي فقدت صفتها الاسمية؟ أي عدمية هنا؟ يمكن للمرأة هنا أن تقودنا إلى لعبة السحر في مكاشفة ملابسات الواقع، حيث تستقرىء الخفي في العمق، وتستنتق الظاهري.

ولا علاقة للمرأة هنا بالمرأة التي نراقب فيها مظهرنا الخارجي، المرأة البودريارية شديدة الشفافية إلى درجة أنها لا تسمح لأي كان في أن يرى ما هو قار في الأعماق من الجهة الأخرى تلك المانعة للحقيقة المموهة، المرأة ترتبط بلعبة المتخيل، بالفعل الواقعي الآخر، بحيوية اللامعقول الذي هو مرفوض المعقول المشرعن والمخول بتقعيد للعلاقات المتداولة، والذي يتجاوز المحسوس، إنها فضائية اللعبة، وتبديد الوقع عبر الالتصاق به، وفي الوقت نفسه استهلاك العقل من شدة البقاء طي مفاهيمه المعتادة، وهي بالمقابل لعبة الشفافية الإعلامية بمواقعها المتحركة هنا وهناك.

مانهاتن تتطلب المرأة المتعددة السطوح، وأكثر من العقل الاستعراضى، والعدمية المتبدية هنا النقيض الكلي للعدمية المدشنة للموت والسلب.

وثمة معاناة لفضاعة اللعبة، حيث الإرهاب الحاصل يستدعي إرهاب النظر، يزكي كل احتمال، يقع خارج المفكر فيه، وهنا عودة إلى أطروحة "تييري ميسان" المتلخصة في اعتبار الحدث: الخديعة المرعبة (ماذا لو كان هذا زائفاً؟ لو كان مفبركاً؟ إنها فرضية على قدر من اللاواقعية بحيث أنها تؤخذ في الاعتبار، كما يستحق كل حدث استثنائي في أن يتعرض للتشكيك في صحته: هكذا تتجاوز فينا الحاجة إلى حدث جذري كما الحاجة إلى الخداع الكلي. استيهام تلاعب غالباً ما تثبت صحته: فقد أصبحت عمليات الاستفزاز القاتلة، والهجمات الإرهابية و"الحوادث" المدبرة من قبل المجموعات والأجهزة السرية، أمراً شائعاً وبأعداد لا تحصى..).

- انظر مقاله (جسيم السلطان) في كتاب (ذهنية الإرهاب)

— ص 120.

بين المرأة والمواجه لها علاقة محسوسة، والمرأة في الوضع المذكور، وبالطريقة التي يعرج فيها على ذكر المدينة ومواصفاتها وحتى طارئتها الجلية، لاترينا سوى المدينة من الداخل، المدينة الحقيقة وهي في رعونة الغفلة الزمنية وفوضى الحسابات، ويكون الوجه خداع المتخيل الوهمي، أو فانتازما المعاش، وفي كل ذلك يصعد الإرهاب بمثيله ونقيضه معاً. الإرهاب حاضر باستمرار بسبب عدم التفكير فيه،

ولأن الاستخفاف بالواقع حيث يعتبر من نوع (كامل الدسم)، يبلغ الحد الذي لاحد بعده، فلا فضاء خارج المأخوذ

الواقعي، ولا خلاف مع المعاش، وفي هذه المركزة الصراطية والمؤتمتة يضج العقل نفسه بما هو فيه وعليه، لهذا تمارس اللاعقلانيات مهامها غير المعلنة، وأدواءها الكامنة لنسف الواقعية المفرطة، أو ما يسمى بالسوبرواقعية Hypérrealité، إنه انتقام العنف نفسه من حالة اللااعتراف به، في عالم لا يمكن التعريف به من دونه، فهو علامة من علاماته الكبرى، وربما العلامة الاستثناء أحياناً، كلما تم التكرار له، ومن هنا، وحيث يغدو العالم كلاً واحداً، وهو واهم الواقع، وبهمة النقانة المؤسطرة، يكون الداخل المسرح الحيوي لكل طارئ، قيد الانفجار، ومباغطة العقل السديمي السائد.

إن تقديم المدينة بوصفها الحاضرة المثلى والحضور الأمثل وحضرة المثل العليا مجسدة في إشاراتها وعلاماتها وواجهاتها ونظام السير فيها، كل يلغي مفهوم العمق، وتكون الحقيقة كما هي المدينة، في المشهديات المحسوسة بأضوائها الساطعة التي تمنع النظر من التدقيق، يعني كل نفس المرأة، وإلغاء مفهوم الوجه المميز تيمناً بوجاهة نقانة فائقة سحرية الطراز، كما هي نيويورك، في شوارعها، وجسورها المعلقة، ومداخلها، وواجهاتها الخارجية ونصب الحرية المواجه للمحيط اللامتناهي، وألغاط لغاتها، ومسارحها، فهي المدينة الدولة بضخامتها، لهذا تحضر باستمرار كفاجعة بصرية (كانت نيويورك فضاء يستحيل اختراقه، متاهة من خطوات لانهاية لها، وأياً كان المدى الذي ذهب إليه أو كانت إجادته معرفة الأحياء والشوارع، فإنها

كانت تتركه دائماً بشعور بأنه قد ضل الطريق)، هذا ما جاء في مطلع رواية "بول أوستر" المشهورة (ثلاثية نيويورك)، الترجمة العربية (ص 28)، هي رواية المدينة اللامدينة، ببذخها المضحي بحقيقة ما تكون عليه، فالعنف هنا هو عنفها الذاتي ضمناً.

وفق تصور كهذا يصعب التجاوب مع بودريار دون وعي مفهومه المتعدد الأوجه، كما هو الموضوع — الحدث الذي يتعرض له، إلى أن القارئ يجد نفسه وسط متاهة وهو يواجه صعوبات التأويل..

6- ثمة ولع بالترابطات بين المرئي visible واللامرئي invisible، لأن في ذلك بروزاً للمدينة الظاهرة حدثاً، للمدينة الحدث، للمدينة التاريخ ومشروعية الإقامة فيه، للمرأة وما تخفي وما تظهر، وهو معنيّ كثيراً بالموه والشبحي (السيمولاك)، هو ولع بالحقيقة العسية على الامتلاك، لهذا فهو يشدد على عنف العالمي، على عنف العالم الذي بات موحداً بالعنف، وهو عنف لا يفارق العولمة ومخزونها العنفي، وكيف أن ذلك يؤدي إلى هدم المعمار وما يحتويه من عنف متعدد الصيغ. إن هدم / نسف المعمار

La destruction de cette architecture يعرف بالعنف المعمول به داخلاً بوصف المبني توابيت حجرية sarcophages فالعنف معلّم عليه داخلياً، ولا انتباه كاف إلى ذلك، وإنما هناك ما أسمية بحالة تعيش، état vivat حيث

الترويج للمدينة الممتلئة يتم من خلال النمط المعلن عنها وعلى مد النظر.

وهنا أجدني مضطراً باللجوء إلى ذكر مقطع طويل نسبياً لتوضيح الصورة البودريارية، ومن خلال موقفه من أمريكا كمدينة، كإرادة عيش وحياة ونوعية الخوف المميزة لها، ربما بسبب غطرسة مماثلة:

(إن هجاس الأميركيين يكمن في أن لا تطفأ الأضواء. لذلك تظل الأضواء ساطعة طوال الليل في البيوت. وفي ناطحات السحاب تظل المكاتب المهجورة من الموظفين مضاءة. على الطرقات الحرة وفي وضوح النهار تسير العربات وقد أضاءت مصابيحها. في "دانس بالمزايف" بفينيس حانة صغيرة تباع البيرة في حي تقفر أرجأؤه كلياً بعد الساعة مساءً، إلا أن لافتة النيون المضاءة بالأخضر والبرتقالي تظل مضاءة طوال الليل عبثاً في القفر، هذا ناهيك عن التلفزيون المبرمج للبث لمدة 24 ساعة من 24 ساعة، والذي يعمل بطريقة هاذية في غرف المنازل المهجورة أو في غرف الفنادق الخالية من النزلاء. ليس هناك سراً أعمق من سر التلفزيون الذي يبث برامجه وصوره في حجرة فارغة... باختصار، لأحد في أميركا يقبل بحلول الليل والسكينة، ولا أحد يقبل بتوقف السيروسة، التقنية.. هنا يمكن القول أن مثل هذا السلوك يعبر عن الخوف أو الهاجس، ويمكن القول أن هذا الهدر اللامنتج هو عبارة عن فعل حداد...الخ).

- انظر "بسام حجار" في: مديح الخيانة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1997، ص 112 - 113.

ثمة حدة قولية إلى درجة الرعب الموازي للحديث عن نيويورك، أو عن أمريكا، وهو رعب لا يمكن التوقف عنده بوصفه الرجم الموجه، وإنما النفير المنبه لما يمكن أن يحصل في مواقف كالتى كتب عنها.

إنه كرنفال حداد، رثاء يتوجه إلى المستقبل بلغة تزاج بين الفلسفة والشعر، وتعتمد الصورة كثيراً، وليس هذا بتحليل لما نحن بصددّه وإنما محاولة التعرف على العنف المكتوب عنه بودريارياً، وما عدا ذلك يمكن تصنيف فكره النقدي رافضياً، معتقدياً حتى النخاع، وهو نفسه يحذرنا من فورته.

7- لابد من الحديث هنا عن الانتحار المزدوج double suicide. ثمة مرافعة قضائية من نوع خاص، إنها قضية فلسفية بامتياز، هي قضية الفلسفة التي تتناول موضوعها من موقع الجاني والضحية، ومن جهة أخرى لاجان ولا ضحية في (العرف) الفلسفي، إنما القضية اللاقضية حيث تتناول الموضوع من النواحي كافة أو في وجوهه اللامحدودة، وترك المجال مفتوحاً للآخرين لمقاربة الحقيقة، بودريار يقدم لمشهد العنف ليس بوصفه جناحة محلية أو جهوية محددة، بقدر ما سعى إلى طرح حقيقة العنف في لبوساتها المختلفة، وعلى طريقته، كما أقول باستمرار، ثمة ذهاب بالموضوع على أبعد مدى، وربما

كان للإرهاب حضور في هذا المنحى نظراً لفرط المتخيل وانفتاح الفلسفة على أبعد حدود ماورائيتها.

لا يتدقق النظر في انهيار البرجين، ولا في الرمز المسقط عليهما، ولا في الذين قاموا بالعملية، ولا في الذين أصبحوا ضحايا، إنما في كل ذلك، حيث تم أو يتم استنطاق الصامت المغيب أو المستبعد من الموضوع. ما الذي تيدى للكاتب الرائي وهو يتمعن في انهيار الأبراج (Tours)، هكذا بلغة الجمع؟

En les voyant s'effondrer d'elles-mêmes, comme par implosion, on avait l'impression qu'elles se suicidaient, en réponse aux suicides des avions-suicide. p16)

(حين بدت وهي تنهار بذاتها، كان هناك انطباع وكأنها تتنحر، رداً على انتحار الطائرات المنتحرة)

ثمة روحنة Espritation للمدينة، لكنونة المعمار، في محاولة للتسلل إلى ما وراء المنطوق، إلى ما وراء العياني بالذات، وإيجاد التناظر بين الناظر والمنظور، حيث تبدو مناهاتن في صلب البنية المعمارية، في استعراضيتها المحلقة بنوع من الوقاحة المشهدية، وكأنها عصية على النخر الزمني على التضعضع، وكأنها والأبدية سواء هنا، لا حساب لآلة الزمن، للطوارئ كما يبدو، حيث كل ماتم القيام به يستند إلى نوع من التفسير المتفرد الذي لا سابقة له ولا حقة عليه، كأن

الجماد نفسه وهو في كلكله الطولاني في انتظار منقذ فضائي أو يأتي بحيث يضاهي المخلّق مباهاة نفوذ. لا يعوج البرج سوى الاستحالة لما لا ينبغي التفكير أكثر من المفكر فيه، هي استحالة الاستمرار بعقلانية منمنجة (لا حضور لتوماس كوهن ولا اهزنبرج في المخطط الهندسي المعماري لحظة التفكير في المكان وعلاقته بالزمان)، تبدو عظمية المعمار رغم شفافيّتها منزوعة النقي، مجردة من الغطاء المقاوم لأكسدة المناخ ودول الزمان وحوادثها. ذلك التواطؤ المصعد به بين البرجين والطائرة، والذي يشبه لعبة كومبيوترية أو الخدعة السينمائية بامتياز، أكثر النقد قسوة إلى أخلاقية المعمار الهندسية، وهزئها الأرعن من الطاريء، وهو هزء لا يترجمه سوى عنف المعنى وإرهاب المضمون، ولهذا كان الانفجار الداخلي

Implosion وليس الخارجي explosin الحقيقة المترتبة على تجاهل قانون طبيعى وقيمي.

هل يحيلنا بودريارد إلى قوة مجهولة انتقمّت من الروح الخاوية للمعمارية المتعجرفة؟ هل يذهب بنا بعيداً إلى أن الطبيعة تمتلك القوى الرادعة التي تعيد كل شيء إلى ما هو عليه ليبقى ما هو عليه محافظاً على قانونه الخاص الذي لا يمكن النيل منه، بوصفه رادع كل قانون محكوم به لا العكس؟ خصوصاً وأنه إزاء أمريكا يمنح موضوعه قيمة تكاد تكون ماورائية متحالفة مع الطبيعة بالذات.!

لا يمكن التفريط بالمعنى عبر إجابة مألوفة، إنما الممكن قوله هو الصفة الراديكالية لتفكيره، كون الموضوع بلغ الحد الأقصى من الراديكالية المضادة، لقد استثمر كل ما يمكنه البروز فيه من ناحية الاحتواء المكاني، إنه الباحث عن موازين قوى بوصفه الحريص على سوية المكان عموماً، وما حدث ويحدث ليس سوى التعبير الأكثر تجريدية في مواجهة التجريد المكاني، والبحث عن التوازن مجدداً.

8- هل من حكمة في أسبقية الانهيار الرمزي l'effondrement symbolique على الانهيار الفيزيقي أو المادي l'effondrement physique؟ أي نظام يكون مستهدفاً هنا؟ من الملاحظ قبل كل شيء أن المقصود بالنظام أي système ليس النظام السياسي كما يتبادر إلى الذهن في مضماره العربي، إنما هو جملة قواعد ومبادئ تشكل الفضاء الثقافي والاجتماعي والجمالي لأي مجتمع، ولهذا تستخدم كلمة (سسنام) معربة دون ترجمة تجنباً لأي لبس جانبي، والانهيار الرمزي هو خاصية هذا السسنام.

الانهيار الرمزي هو انهيار الرهان المعقود عليه الأمل المستقبلي الذي يمتد باتجاه الأبدية المتصورة، لم يعد هناك مستقبل، لأن النقانة الممهورة باليقينية الفارطة صوّرت المستقبل طي الامتلاك، وكان هناك إقامة في الجنة التقانية، ويعني ذلك الحصانة المحمية لكل رموز المستقبل، ولعل الرد الجاري تصويره يصعد بالحدث نفسه إلى ما ليس يقينياً، ثمة

تصفية الذات بالذات، وهذا يعيدنا إلى المقولة المتعلقة بالانتحار مجدداً، حيث يقول الكاتب في مقال آخر له متداخلاً مع مقاله هنا (عندما انهار البرجان تولد شعور بأنهما يردان على انتحار الطائرتين الانتحاريتين بانتحارهما الخاص، قيل "الله نفسه لا يسعه إعلان الحرب على نفسه" فليكن معلوماً، إنه، بلى، يستطيع. فالغرب، وقد تصرف كما لو أنه في موقع الله) ذي القدرة الإلهية الكلية والشرعية الأخلاقية المطلقة) يغدو انتحارياً ويعلن الحرب على نفسه) — انظر: ذهنية الإرهاب، ص20.

ويتبدى هذا العنف الماورائي الذي تم التكتّم عليه من خلال الإشهار بالمستقبل والتشهير به في آن، انطلاقاً في الضلوع في مؤامرة غير مسمّاة لاستباحة العالم، ولتمرير العولمة المنقاة، بعيداً عن الآخرين، وهؤلاء محسوبون حضوراً وقيمة، والبعد القيمي الانتحاري بغض النظر عن مفاعيله ومداخله أكد ذلك العنف اللامرئي الذي يوجد أحداثه معه خارج حدود التصور، ويعرّض مجمل

التوقعات المخططة لها حتى لو في افتعال حدث فاجأ العالم، واستحضر العالم بالحدث، وذلك من خلال

طبيعة الحدث المباغطة، وربما هناك أكثر من طبيعة له لم تتجل بعد، فالذين قاموا بفعل الانتحار تجاوزا النتائج، وحدود الملاحقة القضائية، وربما لن يظهر وحتى في المستقبل القريب، طالما الحدث الجاري إخراجه وحد العالم تحت مظلة

مرعبة هي الارهاب (لقد استطاعوا أن يجعلوا موتهم سلاحاً مطلقاً ضد سستام يحيا من استبعاده الموت، ومثاله هو "صفر من القتلى"، كل سستام يقوم على صفر من الموتى، هو سستام حصيلته عدم، وكل وسائل الردع والدمار لن تكون مجدية ضد عدو سبق له أن جعل موته سلاحاً هجوماً مضاداً. "ما همنا من القصف الأمريكي! إن رجالنا يتوقون للموت بقدر ما يتوق الأميركيون للحياة!". ومن هنا معادلة السبعة آلاف قتيل الذين تكبدهم، دفعة واحدة، سستام "صفر من القتلى".) — انظر المصدر نفسه، ص25.

ليس بالامكان، بسهولة، التجاوب مع تحليل كارثي، مرعب كهذا، لكنه في حدود اللا عقل، أعني العقل الذي يشرف على العقل التكنوقراطي والديجيفراطي والميديقراطي، يغدو حقيقة مؤلمة، كون العالم المتقدم في ضوء ملايسات الحدث جرى تصويره مكتنفاً بالسرعة، كما هي حكمة الثانية التي تعبر ذات قيمة أدائية ولكنها أدائية، وهي كذلك إجرائية، وكأن (لا كأن هنا في مفهوم السرعة المقايضة حتى لما هو قيمي) نلکم السرعة مصانة ومراقبة في تصاعديتها، فثمة صرامة وجهامة حياة في إثرها، أذكر هنا بما قاله بودريارد قبل عقدين من الزمن (إن التوتر والإبطاء هما شكل تراجيديتنا الراهن، منذ أن أصبح التسريع هو سلوكنا. فلم يعد الزمن بديهياً في تلاحقه العادي، منذ أن تمدد، (شرطنا) اليومي للبعد الطاقى للواقع. فلم يعد منوراً بالإرادة، والفضاء بدوره لم يعد منوراً بالحركة. فما

دامت وجهتهما قد ضاعت، فلا بد لنوع من الوجهة أن يتدخل من جديد لكي يعيد إليهما بعضاً من أثر تراجيدي).

- انظر: الانذهال والعطالة، المصدر المذكور، ص126.

9- لاشيء يضاهي حجم الدمار ويستحقه: ليس هذا الدمار الذي يتحدد بصبغته محمولاً بالرفض الأخلاقي لما حدث، ليس التركيز جار على الحدث بوصفه دماراً ينبغي استهجانه فقط، ولا على الطابع المأسوي للحدث، في فلسفة بودريار لا مكان للقيم المؤطرة، وليس المقصود هو التعبير فرحاً عما حدث، إنما الوقفة الفلسفية تخص بنية الحدث المتفردة، الحدث باعتباره عطب تاريخ بكامله من خلال مؤثراته الضاغطة، انقلاباً عقلياً على ذاته، وتهديد المجتمع من الداخل، صراعات يقينيات متطاحنة في العمق، وكما يعلمنا الحدث من خلال مضغفاته، وقد هيأنا لما يمكن أن يجري عبر التلفزة، وهذه عبر جمهرة كبرى من التحركات التي تمت ومازالت تتم على أعلى المستويات، وما هو مضمّر شغل بمعان لم تترجم بعد واقعياً. الدمار الحاصل يستوجب كل ما من شأنه قلباً للمعايير وتغييراً في المعيش اليومي ومحاولات مختلفة للتكيف مع الحدث في صيرورته (ما يمكن أن يؤول إليه ويصيره) وسيرورته (ما مآلاته)، هذا ما حققته المقدمة / المقدمات

ما تم تلمسه في التو، بخصوص التوتر الذي تبذ عالمياً، عبر التصريحات والتلميحات والإشارات.

فالعَمق الحيوي لكارثية الحدث يتعاین في الموقع الذي كان عصياً حتى على الافتراض، فكيف به وهو اعتراضی، وهو الذي أوجد ما يؤخذ به واقعياً؟ كل شيء يبدو وكأن الموضوع في غايته الموقعية المصورة يتعلّق بالميتافيزيقا، بكائنات غازية، ولم يتم التدقيق فيها، كما أعلمتنا البداية (إذ لم يعلن أجد أن المسؤول عما حدث، ثم بدا الجميع وبدرجات متفاوتة مسؤولون عن الحدث، ومتآثمون بالتبادل).

بينما الإرهاب كان يمارس الإعلان عن اسمه من خلال التوريات وزحزحة حقيقة دون أخرى على مستوى المعمورة. لابد من التركيز من جديد على رمزية الحدث (وحده العنف الرمزي مولد للفراة. وفي هذا الحدث الفريد، في فيلم منهاتن الكارثي يتصافر في ذروتيهما عاملا الفتنة الجماهيرية في القرن العشرين: سحر السينما الأبيض، وسحر الإرهاب الأسود، ضياء الصورة الأبيض، وضياء الإرهاب الأسود) — انظر (ذهنية الإرهاب)، ص 34.

هذا التقابل بين الأبيض والأسود يحيل إلى عنصرية اللون العرفية كثيراً، إلى البعد المعتقدي السيء الصيت المتعلق باللونين. لكن البياض بقدر ما يضيء ويشع يعمي البصر ويغيّب الحقيقة، وكذلك السواد بقدر ما يشتد يمنع من الحركة، ولعبة الخداع البصري في الأبيض أكثر حضوراً، كون السواد الحالك، لا يلمح إلى صورة ما، ربما يكون هناك، وهذا موجود في البياض أيضاً.

الإرهاب في حقيقته يترافق وحقيقة الموضوع وكيفية بث مؤثراته، إنه حاضر بطريقته وبنسبة تضاهي نسبة الحقيقة المطروحة، نسبة التجريد المقدمة بنزاهة مشهدية، إنه الانتقام ممن يتجرد منه إذاً (الإرهاب كالفيروس، ماثل في كل مكان، هناك حقن عالمي متواصل للإرهاب الذي هو كالظل الملازم لكل سستام سيطرة، مهياً، أينما كان، لأن يصحو كعامل مزدوج)، كما جاء في (أهنية الارهاب) ص 22.

كل نفي للإرهاب استعداد له واستدعاء، فإحالة إلى الخارج هي من باب وجوده إلا خارجياً بوصفه الغريب الذي يحدث أزمة ويجد لها منفذاً، على طريقة "رينيه جيرار" في (العنف والمقدس)، الإرهاب حاضر على صعد شتى وفي المكان الواحد نفسه، لنلاحظ علاقة الأرضة بالأرض، وفي الجانب المقابل

الأرض terre بالفرنسية وعلاقتها بالإرهاب terrorisme بالإرهابي Terroriste، كل ذلك يدفع إلى الانفتاح على ما هو داخلي حيث جرى التركيز كثيراً على ما هو خارجي حفاظاً على يقين ممّوه.

10- لامرئية المعمار، لامرئية الواقع، عبر غياب وتغييب الشبهات وتضليل المنظور: لا يتقدم بودريار إلى الأمام، وهو يفلسف الحدث، ويتعرض العنف في الجهات غير المنظورة جيداً، بقدر ما يتقدم ويتراجع، ينظر عالياً وسافلاً، ودفعة واحدة بغية مقارنة المضلل والمضلل واقعاً، وليس هناك ماهو

أكثر إغفالاً في التضليل العام مثل المعمار البللوري (الكريستالي)، حيث يعكس الضوء ويحيل الخارج إلى ارتطام بذاته، مضاعفاً من وضعية ارتكاسية، مبقياً الداخل وراء كتامة الزجاج، أو شفافيته التي تري كل شيء في أمان تام، فلا داعي للقلق، هذا هو اللامرئي الهمجي، الذي يتربص بالواقع المغاير، وكل هذه اللامرئية تفتح الأفق على كل ما هو صدامي، ومن قبل الأغلبية، سوى حراس المشهد السري ومولفيه يعلمون بحركية اللعبة ولكن دون إمكانية الإحاطة بالنتائج، حيث التأويل نفسه يتطلب مقايضة لمفهومه وما يستحضره من رقاقات حقائق مؤرشفة ومؤثرة، يقول كاتبنا بهذا الصدد (كل حدث اليوم هو من حيث الإمكان، منعدم النتائج، ذلك إنه يشرع الباب على جميع التأويلات الممكنة، وليس بمستطاع أي واحد منها أن يوقف المعنى: تساوي إمكان (احتمال) كل الأسباب وكل النتائج، منسبة متعددة واحتمالية) — انظر (الانذهال والعطالة)، ص 124.

تصبح الفلسفة من النوع البراغماتيكي، والتي تجسد الطابع الأكثر تألقاً للثقافة الأمريكية ومنذ أكثر من قرن، وهي بذلك تكون الاختلاف الآخر عما هو أوروبي قبل كل شيء، على صعيد النظر إلى النظر إلى الفلسفة كمعنى، تصبح على المحك منزوعة المدى مصدومة بالحدث البادي شعائرياً.

11- الحدث — الصورة. الصورة — الحدث - événement
image. Image- événement. هما متداخلان.

بالنسبة لطبيعة التداخل بينهما، يصعب تحديد وشائج القربى نظراً لوجود أكثر من هدف استراتيجي مؤمل تحقيقه من خلالهما، وكل منهما مأخوذ بالآخر، وتبقى الصورة الأكثر جاذبية قيمة هنا، ولعل الحدث الذي يشغلنا هنا هو الذي يحدد آفاق الحقيقة المبحوث فيها وما إذا كانت حقيقة أم لا، فالخلاف الأكبر هو كيفية تقديم الحدث مصوراً، كيف تم تصويره؟ وبشكل أدق: كيف أوجدت الصورة حدثها؟ حيث المتخيل يلعب دوراً كبيراً في إذكاء نار الحدث، وإيراز معضلاته apories، وبدا الحدث لاحقاً ليبدأ بدوره فاعلاً في صنع وتمتين الصورة المختلفة، لا الصورة الأصل، فهذه غير موجودة حتى الآن، ولن يكون لها وجود، طالما أنها صناعة الحدث المتخيل قبل كل شيء، ولهذا يجري الحديث كثيراً عن الحقيقة الشبح، الحقيقة الظلية، أو السيمولاكر، والذي يهتم الكاتب هو هذا البعد الخفي وقد عرّف به، بوصفه الحقيقة التي انبثقت حدثاً. إن العين المجردة لم تعد بدورها ذات قيمة، لابد من عين أخرى (داخلية) توجه الحقائق، والكلمة ذاتها باتت بيان الصورة، راهنيتها ومشعور بها انطلاقاً منها.

"ريجيس دوبريه" يقول (المرئي أصبح في هذا العصر صاحب السلطة، وهو ما يتناقض مع الكلية القدرة السابقة والمعترف بها بالنسبة لكبار اللامرئيين (الله، التاريخ، العقل). هذا صحيح مع إضافة وتوضيح أن المرئي هذا ليس المعتمد على العين الناضرة، إنما العين الباصرة، تلك التي ترى

ما هي رغبة فيه وتحيله ثمناً إلى المشهد العيني حقيقة واقعة، على الآخرين قبولها، بحسب القيم المبنوثة فيها. فالصورة آتية من (فوق) من الفضاء الخارجي، وبناء على توجهات وتعليمات من الأرض، وفي مكان شديد السرية، وكل ذلك يحيل اللامنطور إلى قضية خلافية، وتغدو السماء ذاتها بكل لاتناهيها مرصودة من قبل الأقمار الفضائية، حيث البث يتم بالصور من زوايا معينة، ولا يعود اللامرئي سوى الكائن في المبنوثة.

هنا يكمن الرعب الذي يولد سلاسل الرعب الخاصة به، بما يشبه صندوق باندورا الذي انفتح بشروره في مكان معلوم (في هذه الحالة إذاً ينضاف الواقع إلى الصورة بوصفه جائزة رعب، بوصفه رعشة إضافية. ليس مربعاً وحسب، بل هو واقعي أيضاً. وعوض أن يكون عنف الواقع ماثلاً أولاً، ثم تتضاف إليه رعشة الصورة، تكون الصورة ماثلة أولاً، ثم تتضاف إليها رعشة الواقع) — ذهنية الإرهاب — ص 33.

هو الكلام نفسه وارد هنا ، حيث المقال شبيهه في نقاط كبيرة، وقد أوردت هذا المقطع لتبيان أثر العلاقة المزدوجة من خلال قراءة مرافقة في ضوء ما أثرته هنا عن موقعية الحدث — الصورة. — الصورة — الحدث، كون الصورة تتحكم فينا اليوم أكثر من أي وقت مضى، إذ (وهذا مثال) ماذا أعلم في أي صورة أنا الآن، أو غيري، عندما أعبر حدوداً معينة، أو يتم التدقيق في شخصي من خلال الصورة المركبة أو الموضوعية

عني، وانطلاقاً من مواصفات معينة تتلبسني ولا علاقة لي بها، ولكنها إحبولة الصورة هي التي تقوم بكل هذه الأدوار، ليأتي الحدث مؤكداً حقيقة ما يقام به من إجراءات معينة.

ثمة تشويه هنا للفضاء بمعناه الروحي، أو الماورائي، فالله نفسه لا يعود النظر إليه بوصفه اللامرئي سماوياً، كون الصورة المأخوذة من الفضاء، تسيء إلى اللحظة التي يفكر فيه، باعتباره الموجود عالياً، وهاهي الصورة توجه الواقع وتصنع أحداثه من الموقع الذي يفترض وجود الله فيه، رغم عدم وجوده في موقع محدد، ولكن صناعة الصور الفضائية بدورها لا تتم من موقع معين ومن جهة محددة، هذا هو الأشكال، والذي من شأنه منح الصورة المزيد من جاذبية اللامرئي ولكن المزيد من وهم الحضور

أيضاً، والقلّة القليلة من المؤمنين يمكنهم نفي ما ينقل إليهم، حيث يدركون زيف الصورة الميثوثة، ولكن الملاحظات التي تتم في إثرها تتزعزع ذلك اليقين، وإلا فإن التعرض لتهمة الإرهاب واقع بيسر هنا.

12- ما هو الخيال الأكثر رعباً، أو إعادة خلق الواقع باعتباره الخيال الأكثر رعباً *comme l'ultime et la plus redoutable fiction*؟ هذا يعيدنا إلى البحث في الصورة المكثفة والرعب المتمثل فيها، وما يمكن أن تحدثه من (رعبات مماثلة) إن جاز التعبير، كون الرعب وحلقات الرعب الأخرى التي بدت واقعية بالصوت والصورة الحيين هذه المرة (بعد

وقوع الحدث)، شكلا العلامتين الفارقتين الأكثر بروزاً للحدث المتفرد،. يعيدنا ذلك إلى البنية الأخلاقية للحدث، فالذي جرى تصويره وتصوره صحوة الشر المحض ونقلاته ضد الخير المحض وسكينته، وفي دولة (العدالة المطلق)، كما هو معلوم ومروج له، وهو صدام مفتعل، ولكنه يعرف بخاصية اللعبة، ومدى مجافاته للواقع. إن النظر إلى الواقع بوصفه الواقع المرسوم كما تريده الذات لأخلاقي، والرد عليه بعنف مماثل بدوره لأخلاقي، وسلسلة الردود تكون تابعة مما كان ونابعة مما هو لا أخلاقي، وهذا يوضح الغباء الكامن في فكرة القوة المجردة من صيرورة التاريخ أو حركيته، وبالتحديد ذلك المجال الضيق لأخلاقية الفلسفة التي خانت حقيقتها وهي أن تكون قضيتها لامواقعية محددة، هي قضية الإنسان بخيره وشره المتداخلين، وخصوصاً ما جرى في غثر الفلسفة المعتمدة أنوارية، ويمكن هنا التمعين فيما أورده بودريار، ولو أن المقطع طويل، ولكنه مهم بالنسبة لموضوعنا (جوهر المسألة يكمن ما هنا: في التفسير الخاطيء كلياً الذي انتجته الفلسفة الغربية، فلسفة الأنوار، لمسألة الخير والشر. نحن نعتقد أن تقدم الخير أي ارتقاءه بالقوة في الميادين كافة (العلوم، التقنيات، الديمقراطية حقوق الإنسان) يتمشى مع هزيمة الشر وتقهره. إذ يبدو أن أحداً لم يدرك أن الخير والشر يرتقيان بالقوة في الوقت نفسه ووفق الحركة نفسها. وانتصار أحدهما لا يؤدي إلى زوال الآخر، بل العكس تماماً. غالباً ما ينظر إلى

الشر، من الناحية الميتافيزيقية، بوصفه هفوة طارئة،... ففي الجوهر لا يقدر الخير أن يحبط الشر إلا بتخليه عن كونه خيراً، لأنه، باستثناؤه بالحكر العالمي للقوة إنما يتسبب بشرارة لإشعال عنف مواز) - انظر (ذهنية الإرهاب) أيضاً، ص 24.

ولقد جرى تصوير الحدث بوصفه شر الآخر، ولو أنه مفتعل، وكل هذه الزلزلة لمضاعفة البنية المعمارية للحدث، أي جعل الحدث مرئي كما تم بثه موازياً للمعمار نفسه: الشر المستطير الذي ينبغي التصدي له، ويكشف ذلك عن القوة الاحتياطية الهائلة للثقافة التي تعمل على تسكين الناس في الجو اللاحثي، على تعبيثهم بوصفهم (الناس الذين لا ناس سواهم) رغم العنف المحسوس واقعياً وبودريار، لا يتوانى عن اللجوء إلى المفردات الأكثر دلالة عن العنف (وداو بالتّي كانت هي الداء)، ليس لوجود نزعة التشفي (باعتباره فرنسياً)، وإنما كون الحقيقة الجاري التمثيل بها وتمثلها دفعته إلى ذلك، وهو يربط الثقافة الأمريكية بالصحراء كدلالة على القسوة، حيث الصحراء تبسط مداهمة النظر بلونها الرمادي المؤلم والمهدد بالتلاشي والعدمية ولاتناهي السراب، وفي الحيز الأمريكي يستحضر الثقافة المطبوعة بالنمطية (الأمريكي هو الأصل، هو الباراديغم، السوبرمان)، ولهذا يقول (لم تخل أميركا يوماً من العنف أو الأحداث أو الرجال أو الأفكار، ولكن كل هذا لا يصنع تاريخاً. يؤكد اوكتايفيو باث بحق أن أميركا قد وجدت في سياق الرغبة في التقلت من التاريخ. والرغبة في تشييد

يوطوبيا بمنأى عن التاريخ، وهذا ما تم جزئياً وإنها لا تزال تبني في هذا السياق) - انظر (مديح الخيانة)، المصدر المذكور، ص115.

هذا يقودنا إلى طبيعة الصدمة التي تترتب على الحدث الذي كان عليه ألا يقع وأثرها أمريكياً.

إزاء الهول المعاش على وطأة الصدمة وفعل التهيب الممارس، يمكن معاينة الهوة النفسية التي يخرج منه الصوت الأمريكي الرسمي متوتراً، صراخياً، مختنقاً، كون ما حدث، وربما لم يتوقع البتة أنه سيكون هكذا، لهذا ينكشف الأثر الصادم (إنها (الضربة) تنبيه لمغالاتهم في أداء الخير وفي تجسيد الخير) ماذا كان يجب أن يحدث ثم؟ (الأميريكيون كان يعوزهم مثل هذا الجرح) لقد تعرضوا للهجوم في بيرل هاربور وفق شروط الحرب، وليس وفق معايير الاعتداء الرمزي. (انقلاب مثالي لأمة جرحت أخيراً في القلب وبانت مطلقة اليد، لأنها كُفرت عن موتها، باستخدام القوة وهي مرتاحة الضمير)، كما يقول في (جحيم السلطان، ص111). وهو يذكرني بما قاله البريطاني "جون لوكازيه" (في اعترافات إرهابي) وذلك في المصدر ذاته "ص91" إن سورة الجنون التي تشهدها أميركا هي، في نظري، الأسوأ من بين كل ما شهدته في تاريخها: أسوأ من المكارثية، وأسوأ من خليج الخنازير، ويحتمل أن تكون، على المدى البعيد، أشد وقعاً من كارثة حرب فيتنام)،

عنف الكتابة هذا معاينة للعنف المعمول الحدث، فثمة التفاف

على الحدث، قراءة لتاريخه، استشفاف لمقدراته الرمزية، حالته المعنوية، حملته الرهانية، جنونه الظاهري الذي لم يخف بعد المخاتلة والخطل المنبئين في الصميم، لسان حاله، وموقعيته الزمنية، وعلاقته بجملة المتغيرات الدولية، حيث كل دولة بكل ما تملك وتحكم محكومة بالمفعول الرجعي والأثر القيمي للحدث ولكن في السياق الموجه به وفيه، وكل ذلك يدفع بالمراقب الخارجي، الذي بات معنياً به بحكم كونه مأخوذاً بمفاعيله، كما هو شأن المثقف أكثر من غيره، ربما أكثر من السياسي نفسه، حين يعتبر كل حدث حدثه طالما يعرف به خصوصاً وفي أمكنة مختلفة (المثقف الكوني) فلا حدث يمنعه من البقاء على مبعده عنه، وهو يمسه في العمق، من هنا كان لمفردة (الجرح) بعد رمزي بدوره، عميق الغور يعم كينونة الإنسان، هو جرح يماثل حالة الوأد، إن جاز التعبير، لأنه وليد أو حصيلة الصدمة المباغتة، كما جرى تبينها، ولكن من الآتي، وهنا تبدو مشاركة "دريدا" مؤثرة، فهو يقول (الصدمة تبقى صادمة ولا شفاء منها لأنها مقبلة من المستقبل. فالافتراضي يصد، هو، أيضاً)، — انظر (ذهنية الارهاب)، ص 82. ويبرز هذا الاهتمام أكثر في مكان آخر (إن ما سيظل مريعاً في 11 سبتمبر وما سيحيا "دون نهاية" في هذا الجرح هو أننا لا نعرف ما هو، ولا نستطيع وصفه ولا تحديد ولا حتى خلع اسم معين عليه. وهذا هو بالفعل ما أقول)، انظر (ما الذي حدث في حدث "11 سبتمبر"؟) (ص 66. هذا الجرح في

تجليه الفرويدي — النبتشوي جدير بحمل اسم الحدث في التصعيد به كارثياً، كونه يزيح الحجاب عما تم تغييبه طويلاً. كون القيم المعمول بها على صعيد التبادل والتواصل الاجتماعيين، وفي الإطار الكوني عانت خلخلة في التوزيع، والضربة، بغض النظر عما يمكن قوله أخلاقياً حيث أن ذلك يبقى الضربة وقد بانّت نتائجها، غائرة كانت، أعني كاشفة عما في الأغوار النفسية (فالسلاح الذي يجرّح يخلف ندبة في اللاوعي تظل مفتوحة إلى الأبد. لكن ما يخيف في هذا السلاح هو أنه يأتينا من مستقبل مجهول تماماً لدرجة أنه يتعذر تصريفه والإشارة إليه. ص72).

يلتقي دريدا مع بودريار، وكل في موقعه من ناحية تفكيك الداء، لكن الشحنة الأدائية للكلمة في توضيح المشهد الحدّثي تنثير المتخيل أكثر، ليس من باب المقارنة بينهما، وإنما من جهة المنظور الذي يتمثله بودريار الأقرب إلى العدمية في أكثر تجلياتها سفوراً، ولأنه معتبر الحدّثي البعدي بامتياز.

يستعاد هنا نيتشه حيث يكون هو تاريخياً في موقع آخر، يصنف ما بعد حدثاً، رغم أنه مات على عتبة القرن العشرين، لكنه قيمياً يعد الرمز الأكثر اختراقاً للعقلانية السائدة، فهو يتكلم من خلال كاتبنا، هذا الذي ينظر لما هو كارثي، ويقف في وسط اللعبة التي يتقاسم مفرداتها: الجاني والضحية. الأمر الذي يدفع بالذين يعتبرون الحقيقة هي ما يرونه، يؤمكونها أو يعكسونها، خيانة للحقيقة، ومن هنا كانت المادة

المعروضة مميزة بحدثها وصخب مناخها، استمراراً لنظرتها في مجمل كتاباته.

13- كيف يمكن المضي مع بودريار بخصوص الإرهاب الذي يولد الإرهاب، العنف الذي يمرر العنف بغية عنف آخر، الإرهاب العنفي، والعنف الإرهابي، إلى ما لانهاية له من الجهتين؟

ثمة رؤية فلسفية للموضوع تتلخص في عدم وجود منفذ وحيد إليه، وإنما تتم مقاربته من النواحي كافة، ولعل المداخل الأكثر بروزاً وخطورة هي المتعلقة بما هو خفي ضمناً، إلى ما وراء الخير والشر، وهذه العبارة الأخيرة عنوان كتاب لـ "نيتشه"، حيث تتبدى الحقيقة متوسطة القيمتين، فما وراء الخير والشر ليس الأخير والأشر إنما هما بالمقابل ولكن في حالة صراع وتصارع، والفصل بينهما من موقع تضادي يلغي فاعلية الحقيقة في صنع مفهوم كل منهما، ويبقى الإرهاب العنفي أو العنف الإرهابي مهمورين بحالتي التجاذب هاتين. فحيثما تتم زحزحة وإزاحة الإرهاب يكون حضور العنف مفصلاً عنه، وحيثما يتم إقصاء الإرهاب يبقى العنف معمولاً بمبدأه وهو أنه معانق الداخل لا مفارقه، وكل ذلك يؤدي إلى الخلط ودس الإسفين المفاهيمي دون وجه حق أو حقيقة، وهذا يؤزم المشكلة ويعمق الحدث سلبياً، والحديث عن عبثية الإرهاب أو العنف بالصيغة المقدمة يشير إلى حالة الإغلاق الطهرانية على الموضوع، فالعدو (هناك)، ويعني ذلك أن الذي

يصيغه كمفهوم، ويبلوره كحدث ليس الحدث بوصفه واقعي
النشأ أليفاً نوعاً ما، وإنما كل ما يقصيه محور شر، مرفوعاً
بالعنف والاستبداد والموت. كل ذلك

يفقر التاريخ ويجوّفه قيمياً لصالح جغرافيا عددية مشبعة
بإحداثيات العنف، وهذا هو العبث الذي لا مخرج منه، كونه
اختير المجال الرحب للإقامة في العالم والتحرك فيه، والحدث
الذي جرى يؤكد ذلك.

إذ العدو الذي هو الآخر، وعلى النقيض التام مباشرة،
يعكس المفاهيم القيمية أو يعكسها، فيكون العدو بالنسبة إليه هو
الآخر وقد بات (هناك)، فهي إذاً أكثر من لعبة مواقع متبادلة
ومتعاضلة، ولكن ذلك لا يعني (هنا) أن أس الأزمة كامن في
المعتبر سيد اللعبة، وربما يدعي كل طرف أنه على حق
كامل، بمعنى أنه على صواب، ليستحيل التقارب الاثنيني،
ومضاعفات الحدث حتى الآن تشي بكارثية اللعب، وأن كل
طرف يقف حدياً، يكون طي أتون اللعبة، أي فارز اللعبة وفي
الوقت نفسه وقوده.

14- المنبثق والمرفوض، هذا الذي لا يطاق في القوة
العالمية الجديدة

**Ce que est insupportable et inacceptable,
c'est l'emergence toute nouvelle puissance
mondiale**

هل يترك بودريار خاتمة مقاله محكمة الإغلاق، أم ليس للخاتمة وجود في مقاله؟

لا تقليدية في مقاله حيث كل عبارة تستدعي مقارنة نقدية: بنية ومفهوماً ومنهجاً وبعداً قيمياً. إذ أن المدقق في النص ربما يلاحظ تجنياً على الولايات المتحدة، وغمراً ولمزاً في السياق الإجمالي، وكأنه يكافئ الحدث الإرهابي، ويشمت بالضحية، (وهذا ما يمكن ملاحظته في مقال "جاك جوليار: "بؤس النزعة المعادية لأمريكا، في كتاب (ذهنية الإرهاب) المصدر المذكور ص 41 - 48 مثلاً) ولكنها القراءة المتسريعة والموقعية الضيقة الإطار، إنه من موقع المسؤولية (مسؤوليته كحامل لاسم يمنح حق الكلام في كل حق مهما كان موقعه وزمكانه، وإزاء الكلمة التي تستحيل كتابة وتاريخاً وشهادة على حقيقة حادثة ومثلت أو مثل بها، ويغدو هو نفسه محل الاستنطاق أو الاستجواب من خلال رؤيته تلك) يبدو صاحباً لاهباً، لكنه كذلك انطلاقاً من فرادة الحدث وخطورة البت فيه بعجالة. حيث التشديد على أمريكا إلى درجة القسوة والتحامل (وهذا ما يمكن تلمسه ظاهرياً، وظاهرياً! فقط)، يستند إلى جملة مفارقات لا يحاط بها إلا من منظور الفلسفة اللامواقعية المحددة، فهو يشدد على أمريكا من خلال مركز الثقل المعلومة به، ونتيجة تعددية الأسباب التي خولتها لتكون في مركز كوني معولمة ثقافتها

ومبادئها التي تعود إلى خصوصيتها الزمكانية وهي التي لا تعني الآخرين إلا من حيث تفعيلها أمريكياً وليس لتبادل المصالح تكافؤياً، فأن ينقسم العالم إلى عالمين، وهكذا ببساطة مرعبة، لا يمكن الربط بينهما بالطريقة تلك قطعاً: العالم الأمريكي، أو ممن يساير القطب الأمريكي، خصوصاً في امتداده

الأوروبي (الغربي)، دون نسيان الطابع المسيحاني المتمذهب (البروتستنتي)، والذين ينضوون تحت هذه الراية الغامضة الألوان المغرضة هدفاً، والعالم الآخر: الإسلامي، الموسوم بالتخلف وتوليد الإرهاب، والمشكل الخطر الأكبر على العالم أجمع حتى في محيطه، باستثناء الذين لا ينفكون يعتبرون هذا التقسيم لمصلحتهم، ليس مسابرة وإنما للتعبير عن مصالح معينة، وهكذا يتم تجبير الدين في مجموعه (أن يجعل الاسلام تجسيدا للشر، قد يعني تشريفه (وتشريف الذات في الوقت نفسه). ولكن ليس هذا هو المقصود: فعندما يقال إن الإسلام شر، فإنما المقصود أنه ليس على ما يرام، إنه مريض، وأنه عفيف بسبب مرضه، ولأنه يرى نفسه ضحية مذولة وبدع حقه مختمراً في قرارة نفسه بدلاً أن يلتحق، مغتبطاً، بالنظام العالمي الجديد) — انظر (ذهنية الإرهاب)، ص114.

نحن هنا إزاء صراع جرى التعبير عنه والنظر إليه من منظور مختلف تماماً أمريكياً، يطال بنية الثقافة، وبنية الحضارة في تجلياتها الاجتماعية والسياسية والتربوية والقيمية،

وبما يتجاوز المفهوم الضيق لـ "صدام الحضارات"، كما يقول في المصدر نفسه، لكن في (جسيم السلطان، ص127) وبالحرف (إذاً المسألة ليست "صدام حضارات"، بل مجابهة، شبه انثروبولوجية، بين ثقافة شمولية غير متميزة وبين كل ما يحفظ، في مجال كان، بعضاً من الغيرية غير القابلة للاختزال)، وهذا ما يتوضح في الصفحة التالية (إن نشأة النظام العالمي هي نتاج غير ضارية: غير ثقافة مستوية، مشوشة الحد، غير النظم الفاقدة السحر، الفاقدة الكثافة، حيال ثقافات عالية الكثافة، غير المجتمعات الفاقدة المقدس حيال الثقافات التي تعلي من شأن المقدس وأشكال التضحية).

إنها للغة باهظة التكاليف في عالم لا يسمح بمرور الكلمات، مثلما لا يسمح بمرور البضائع دون دفع الرسوم الجمركية، أو الدخول في شراكة الكلمات حتى بعد تدوينها بصياغة ما، هو عالم الحقيقة المتعددة الأوجه، أو عالم الحقائق المتداخلة، والتي لا تثبت على وجه وحال، وربما كان في لغة بودريار حضور كثيف أو مكثف للصوت الأوبرالي في طابعه الفجائي، ولكنه لا يخفي إطلاقاً الأرضية التي لا يقف عليها في مسارها المعتقدي (لأسمه حرفياً: الفرنسي الكاثوليكي في مواجهة الموقف المعتقدي الأمريكي البروتستانتى)، قد تكون معه إلى حد ما، قد نخالفه في توجهه من منطلق مختلف معتقدياً، وربما تاريخياً، وربما (أضف إلى ذلك) جغرافياً، بوصفه الفرنسي الذي لا يتكلم إلا بحسبان معين، وخصوصاً حين يقف على

جرف خطر، وهو يمارس إلغاء شبه قصدي، لهذه التي تكون (أمريكا)

وبنوع من السخرية والنميمة ضمناً، وحتى الاستعلاء الثقافي، فيكون الإرهاب علامة جلية من علاماته كذلك، ولعل هذا نابع من خوف على خطورة ما يجري وما يمكن أن يحدث لاحقاً، ولا يتمناه، ولا أعتقد أن أيّاً كان ومن موقع الحرص على سلامة الكون والإنسان يتمنى، وهذا بحث آخر، يبقى

العنف البودرياري رافعة قوية، وكأن العنف ليس بالمستطاع التخلص به، حتى بادعاء تجاوزه. ولكن يظل في الطرف الآخر (همنجواي وفولكنر وهيرمان ميلفل وبول كيندي ووالث ويتمان وهوراس ماكوي وهنتغتون وكين كيسي.. الخ مشكلين هذه التي تعي مجتمعة أمريكا لرؤيتها عن قرب). فهذا ما ذكرته سابقاً، وبوسعي ذكره هنا ولاحقاً، لئلا نقع في فخ المعتقد الضيق بصورة كلية أو جزئية.

15- في صميم الأزمة الكوكبية *a coeur de la crise planétaire*! يعني موران (حسب ادراكي له) أن الأزمة راهنة، أو أن هناك أزمة حالية، مستعصية، تتحدى أيّاً كان، حيث الصفة هي في كوكبيتها، حيث المفهوم لا يخلو من تشبيه بيولوجي، أي الكون يستحيل جسداً هنا، يتعرض لأزمة، أعني نوبة هي ذاتها أزمة ولكن بالنسبة للقلب، ومن علاماتها الانقباض مقابل *crispation* كون الانقباض يشي بخلل حاد في التوازن الحيوي للجسد (للكون بالتناظر)، هل حقاً أنها

كذلك؟ لازمان ولا مكان دون أزمة، ثمة حضور للأزمة في كل زمان وزمان، بوصفها لازمة إنسانية، يمكن الحديث هنا عن أزمتين وليس عن أزمة واحدة، أما لحظة الحديث عن الأزمة كمفهوم عام، فالذي ينبغي قوله هو ضرورة تعليق المفهوم نفسه (ليس على طريق هوسرل)، ليس لأنه ملتبس، وإنما لأنه مضلل بالطريقة تلك، إذ كل نقاشاتنا وأحاديثنا اليومية، وكتاباتنا المختلفة الأهداف والمسارات، حتى العادية منها، لا تخلو من طابع أزمة، وهذا القول، كما أعلم، لا ينطلي على مفكر متبحر في العلوم والفلسفة، وخصوصاً في السوسيولوجيا الثقافية، ولكنه يعرضه للتساؤل حين يمنح الأزمة طابعاً كوكبياً وكأنها وليدة اللحظة، أعني يضيف عليها صفة الفردانية. وأعتقد أن المتتبع لكتاباته يلاحظ أن البعد الأزمتي يشكل الأرضية الصلبة لمجمل منطلقاته الفكرية وتصوراتته وهواجسه.

بوسعي ذكر أكثر من شاهد على هذا المبحث (إن كلمائنا السائدة مريضة: لقد فسدت وتوسوست، إنها تعود، بمناسبة أو غير مناسبة، تدعي معرفة كل شيء وتفسير كل شيء. لقد فقدت فضيلتها الإجرائية واكتسبت فضيلة سحرية، فضيلة إثارة الحماسة أو التعزيم)، وهذا ما جاء في كتابه (مقدمات للخروج من القرن العشرين) الترجمة العربية، وزارة الثقافة السورية، 1993، ص 66.

يلعب موران على المعنى ويناوِّره بغية إحداث أثر أكثر فاعلية، فهو لا يتوانى عن استخدام المفردات التي تعيد المرء إلى الداخل، لاستقراء الأزمة، التي هي أزمات كما يبدو، وليست وليدة الراهن، في ربطها بحدث 11 أيلول بدورها، فالقرن العشرون في مجمله كان قرن أزمات، كل أزمة تقود إلى أخرى، ولكن دون أن يعني هذا أن القرن ذاك كان أزماًتياً وكفى، لقد كان هناك رؤى ومنافذ ومحاولات، وإن لم تكن في مستوى المأمول، والقرون التي سبقت كانت لها أزماتها المناسبة أو الخاصة بها، عدا المتراكم منها، والقرن الذي حللنا فيه حديثاً لازال ملحقاً بالذي قبله والذي لا يفصل عنه حسابياً بقدر ما ينصب فيه مع القرون الأخرى نهرياً، فالحدث تراكمي، والأزمة بهذا المعنى لا تتحدد قياسياً، بل ربما من حيث المقارنة مع غيرها، كما في حال المرض والفساد والتسوس والسحر، والأكثر التفاتة للنظر هو (التعزيم) ذو الطابع الماورائي حيث استجداء القوى الخارجية بالصوت، لأن الأمل لم يعد له من معنى يمكن الرهان عليه، وهذا ما يؤكد في مكان آخر من الكتاب ذاته (نحن في الدرجة الزمنية الصفر من الميثولوجيات الكبرى، الحماسات الكبرى، الآمال الكبرى. نحن في هذه السنوات الصفر التي يتردد، فيها، القدر في اتخاذ شكل، ونحن نقترّب من صفر السنة 2000 المثلث الذي يبهرننا بسحره العشري المبهم، فتارة تعلن ثلاثية الصفر عن لا شيء ثلاث مرات، وتارة تبدو هذه الأرقام المستديرة واعدة بعالم

جديد تماماً. إن الصفر هو الرقم أبو الهول: إنه الحالة الحيادية، توازن الأضداد أو البداية الحقيقية، من جديد، من نقطة الصفر — أي الاختزال إلى الصفر — الفناء. ص 85)، ويقول في مكن آخر ص 318 (كل شيء، في هذا العالم في أزمة. وقلنا أزمة يعني، كما رأينا، تقدم ضروب عدم يقين. لقد تقدمت ضروب عدم اليقين في كل مكان وفي كل شيء. وهذا يعني أنه إذا استطاع الأنبياء أن يتنبؤوا والعرافون أن يتبصروا، فإن المشخصين لم يعودوا يستطيعون أن يروا جيداً والمتكهنين لم يعودوا يستطيعون أن يتكهنوا. فالحاضر في ضياع، والكوكب يعيش، يترنح، يدور، يغرق، يفرق من يوم إلى يوم. وكل ذلك يعاش على مدى قصير).

ما الذي يميزه هنا عن الجو الحداثي الذي تناوله بودريار؟ ما هذا الصفر المقلق والملهم للثنين؟ هل ثمة تجاوب مع "رولان بارت" في كتابه (درجة الصفر للكتابة)؟ أليس الشاغل الأكبر للمدون هنا ذا صياغة كارثية؟ إذ يبدو السوسيولوجي مختزن القلق متابساً رعباً وهو يحيل مجتمعاً بأكمله إلى الحالة الصفريّة، حيث الرؤية المفاهيمية للأمور تفصح عن رعب المعاش وفق ما هو معمول به قيمياً.

أزيد على ذلك بالقول بأن كتابه الآخر (روح الزمان) الصادر قبل أكثر من أربعة عقود زمنية، في جزئه الأول (العصاب) يفصح عن بؤس اللغة المتداولة ووهم المتخيل في النصوص المقروءة، ولعل الذي دفع به إلى الحد الأقصى من

مجانبة المجتمع السادر في غيّه، إن جاز التعبير، هو تأزّمه الشمولي، وخصوصاً (حدث 68)، حيث تناوله له لا يختلف عن تناول بودريار للحدث المذكور سابقاً، رغم اختلاف المكان وخاصيته، ولكن المشدّد عليه هنا هو الحدث الذي عرّف به متفرداً بدوره وقتذاك (طرد الحدث بقدر ما جرت مهاماته بالفردة، بالعشوائية والطارىء، باللارجعة، بالمعاش (سنتساءل في كل مكان آخر، عن معنى كلمة "حدث" هذه نفسه). لقد طرد لا من العلوم الفيزيائية — الكيمائية فحسب، بل، أيضاً، من السوسيولوجيا التي تنزع إلى ترتيب ذاتها حول قوانين ونماذج وبين منظومات...)، انظر الترجمة العربية، وزارة الثقافة السورية، 1995، ج1، النخر، ص255.

كيف يمكن الحديث عن الأزمة بعد الذي تقدّمنا به؟ هل حاولنا تقويل سوسيولوجينا موران؟

من يكمل الآخر، أو يستكمل به في تصويره للحدث؟ لامراء في أن الاثنين يعانيان من حالة الجنوح نحو حافة الانهيار ولكن بالمعنى الذي يتيح لهما استشراف ما يمكن أن يأتي، كل منهما يشتعل على مفاهيم خاصة به، دون مواجهة الآخر، أو مجاراته، بقدر ما أن الحقيقة الصاخبة، القياماتية خوفاً من فقدان الحياة إلى الأبد، تتوزع بينهما، ثمة عوالم تتقصف لأنها لم تعد قادرة على رصد ما يمكن أن يكون جديراً بالحياة، ثمة موت مفاهيم بوصفها كائنات تفقر، تهزل، تتشوه، تتأطر، تحتجب تقية أو قسراً، تتبدى مالا تكونه في العمق: شبحية أو

مبللة معان، مضللة، مخاتلة..الخ، لذلك كان العمل مفاهيمياً في صلب مناجاة المغيب أو الموعود إيجاباً، كما هو الشعر المطارد لأنه يبدع فيلقى مقاومة، هكذا الباحث المفكر في اشتغاله بمفاهيم محظورة أو مرهوبة الجانب مجتمعياً، والذي أثرنا (ولا زلنا في البداية مع موران) هو هذا الإقدام على التفكير مختلفاً، ضماناً لمستقبل أكثر خصوبة بالمعاني، وهنا يكون الحدث البودرياري في تاريخه وموقعه حدث أزمة كوكبية ومن نقطة واحدة انبثق فيها، مع اختلال حاد في موازين القوى، فتكون الأزمة صانعة الحدث ولاحقة عليه، أما الحدث الموراني فهو حدث أزمة كونية ولكن غرض النظر عن الموقع التي تحتشد فيها القيم المسوافة والاستعراضية وهي تستنزف سواها، وتنتج حقائق بموازاتها، مضيقاً على العالم في مجموعه، ومهددة الإنسان كمعنىً وكمفهوم .ولعل كاتبنا المشدد على الكلمات العدمية الطابع هو أكثر إلحاحاً من ذوي النزعة التفاؤلية على حياة آمنة .

16- من الجدير بالذكر أن كاتبنا منذ عقود طويلة كان يعتبر الاتحاد السوفياتي (سابقاً) والولايات المتحدة الأمريكية القوتين القادرتين على بلبله العالم وتهديمه أو العمل على تطويره إذ تجاوز سباق التسلح الجنوني وعقدة العسكرة وكيفية المركزة عالمياً، وتزكية العنف في كل مكان، أما وأن الاتحاد السوفياتي قد انهيار، فإن الممكن تذكره هو ما أفصح عنه بخصوص أمريكا (وهو) والتعارضات والتناقضات تنتشر، في

الولايات المتحدة، في ضروب الفوضى الكبيرة التي هزت الدولة وزعزعتها أحياناً، بل وشلتها مؤقتاً. إلا أن حيوية المجتمع الأمريكي تتجلى من خلال ضروب الفوضى هذه). — انظر (مقدمات، ص308).

هذه الإحالة المرجعية بقصد استنارة المكان والتقدم إلى الأمام، فالرؤية الجهوية المختلفة تعتبر الدعامة الأكثر قدرة على إنتاج وتنمية المعاني الملهمة والمشجعة على التفكير وتحريض الآخر للتفكير معه.

لا تحامل هنا، فالسوسيولوجي مخلص لمفاهيمه بالطريقة التي يعتقدونها طبعاً، يختبرها في متخيله، بالمقارنات، والاستقطاقات، وتغيير المواقع، والعودة إليها باستمرار، ويعاين مداها وقدرتها على البقاء والتوالد، ولهذا يكون له عالمة المميز بوصفه الآخر المتقدم والذي لا تتم رؤيته حقيقةً كعالم وكمتبصر إلا بعد حين وأكثر، وهنا تكمن أصالة الكاتب التي تقلقه بقدر ما تؤرقه من خلال حجم الضغط عليه من العامة والذين يشتغلون معه أوفي مجاله وينكدون عليه عيشه المفاهيمي أو يضايقونه بالكتابة أو بالغمر واللمز من قناته، والضغط من جهة المفاهيم ذاتها حيث تتحداه وتطالبه بمداراتها وتمكينها من التحقق والسؤال عنها، اعتماداً على ما أسميه هنا بالمسؤولية المفاهيمية، حتى يأتي الوقت الذي تثبت فيه جدته الفعلية، كون المفاهيم لا تبقى كما هي بقدر ما تتعرض لتحولات تبعاً لمتغيرات واقعة وذهنية.

17- نزعة الشك هي في أن عالماً يتحقق فيه الأمن والاستقرار على مستوى كوني تسم جل ما يكتبه موران، هذه النزعة لا تجعله كلياً، حارس فضيلة، إنما الحريص على العالم دون نسيان عمق الروابط الكامنة في الداخل، فالنفس البشرية في صيغتها الأكثر مثالية، تشكل الحنين الفلسفي إلى الماضي ارتكازاً إلى روح صافية تنزع عن الجسد الكوكبي أدران التقائه ووهم القوة المتفردة، هي إرادة تمثل الحقيقة المتعددة المصادر، فهو رغم عمله المكاني، لا يقدم القيمة الأدائية للنبرة الرسولية في الكتابة (ما العمل؟ نحن نعلم أن عدم اليقين والخوف من الخطر وانبثاق التناقضات يشلنا وينذرنا للعجز. ولكننا نعلم أيضاً، أنه لا يمكن تصور أي فعل دون مجازفة. إن عدم اليقين والتناقض يحضاننا، أيضاً، على المراهنة. والمراهنة تصرف، والتصرف مراهنة... مقدمات، ص291).

18- من الملاحظ جيداً أن موران يتحرك كثيراً في ظل تأثره بأحداث 1968، هي لم تكن أحداث الشباب، كان هناك أكثر من أزمة شملت مرافق الحياة في المجتمع، وغطت مجتمعات مختلفة أوروبية وغيرها، وبدت له الأزمة في سياق الثقافة الجماهيرية، إنها الأزمة المعضلة، التي تهدد مجتمعاً بكامله، وهي التي دفعت به إلى التركيز عليها بوصفها أزمة ليست عابرة، هو وغيره أمثال بودريار وميشيل فوكو وجيل دولوز وفيلكس غواتاري والتوسيرودريدا... الخ (للاستنارة

حول ذلك، أحيل القارئ المهتم إلى كتاب الباحث المغربي "محمد الشيخ": **المثقف والسلطة**: دراسة في الفكر الفلسفي الفرنسي المعاصر، دار الطليعة، بيروت)، ومصطلح الثقافة الجماهيرية تمس كل القيم التي تحرك المجتمع وتتنوع فيه وتتغير من خلاله كذلك. إن الأغنية والرقص والصندويتش السريع التجهيز والمطاعم المتحركة والجنس المنتشر في كل مكان وعروض الأزياء ومعارض السيارات والرياضة والتمثيل السينمائي والتعبير عن الجسد بطرق شتى.. الخ كل هذا يدخل في حيز الثقافة الجماهيرية وكيفية مراقبتها، فهو يقول إثر الأحداث المذكورة (والأزمة تتجلى، بصورة أعمق، في قلب النماذج المندمجة والدامجة نفسه: إعلاء القيم الشبابية، إعلاء القيم الأنثوية، إعلاء شأن التشويق ومبدأ اللذة، وإعلاء شأن الميتولوجيا المشخصة لأنواع الترويج أو الإجازات والرحلات. روح الزمان، ج2 ص216).

وما جرى في 11 سبتمبر ألا يمكن اعتباره مرتبطاً بقيم على مستوى عالمي؟ عبر تفعيل الأزمة عالمياً، ومن خلال التشديد على القوة الشبابية التي تجنح إلى المكان المعبر عنها في عالم ضاغط عليها بسبب وجود قيم عسكرية وتحجيم قيم معينة استثنائية تقليدية راسخة للعنف، ولعل مشاهد العنف وعلى مستوى عالمي، وكيفية القيام بأعمال انتحارية وضلوع الشباب في حبك مؤامرات أو نسج تحالفات خاصة وعقد صفقات مختلفة وتنظيم علاقات تتميز بالحدية والحسمية (إما

تحقيق الحياة المطلوبة أو الموت)، وتعريض المجتمع بكامله لخطر الموت والبليلة، أعني إرجاع كل ما كان إلى بدائية محض كنوع من رد الفعل على بربرية التقانة التي تحيل الموهبة إلى تطويع آلي وبتوجيه من أنظمتها، وكل ذلك يضاعف الأزمة ويبقيها معلقة، ويستدعي النظر إلى هذا الأزمة بجهود عالمية مشتركة ومكثفة.

19- للتوضيح، أشير إلى أن موران اهتم كثيراً بقضايا الشباب وملابساتها.. وعلى سبيل المثال يمكن التوقف عند مجموعة من العناوين الداخلية في كتابه (روح الزمان)، الجزء الثاني، المسمى بـ (النخر) وهو تعبير له دلالاته النفسية والقيمية.. فهو في الفصل الثاني يكتب عن (الأزمة الشبابية) ومن ثم تتسلسل العناوين هكذا:

من الثقافة الفرعية المراقبة إلى الثورة الثقافية

1- مشكلة المراقبة

من الثقافة الفرعية إلى الثقافة المضادة

من الاتجاهات إلى الاتجاهات المضادة..

2- الثقافة المراقبة والثورة الطلابية

الثقافة الشبابية المراقبة

عمومية الثقافة المراقبة — الشبابية

تفسير مسألة الشبيبة

وفي الفصل التالي (الأزمة الأنثوية) نقرأ:

من الأنثوية الجديدة إلى الحركة النسائية الجديدة

اختزال سوسيولوجي للمرأة أم سوسيولوجيا تأنيث؟
المسألة البيولوجية — الانثروبولوجية للمرأة
الخادمة والسيدة

طبقة بيولوجية اجتماعية وليدة وغير مكتملة
تنافذ الحركة النسائية والأنثوية

حواء الجذور وحواء المستقبل... الخ

هذه العناوين ليست استعراضية، إنها مداميك فاعلة في قلب كل حركة ثقافية تعنى بشؤونها وشجونها، إذ يلاحظ الطابع الملموسي والحيوي والدقيق في تثبيت العناوين، والتي تمكنا من مواجهة ما تونه الأزمة دون النظر في البعد الجنحي مباشرة، طالما الهدف هو كيفية تجاوزها وتوسيع رقعة الممكن مجتمعياً.

20- كيف يمكن التوقف عند مفهوم الإرهاب في ظل نظام العولمة مجدداً؟ ما يقال هنا هو أن الإرهاب لا يتحدد إلا بتحديد القاعدة الداعمة له، فهو لا ينزعز عن جملة مقومات تعيش في العمق الاجتماعي والسياسي، إنه ما كان حصيلة وليس وسيلة فعل ما، وربما يكون وسيلة ولكن — هنا — لفعل معقود عليه أمل معين، حيث الإرهاب كمفهوم يرتبط بثقافة وهذه بجماعة أو سلطة أو فئة على أساس ما تفترضه أو تتوقعه من حقائق تمارس العنف الذي لا يكون إلا من وجهة نظر المعارض، وفي الوقت نفسه يستدعي الإرهاب المجال الحيوي للنيل منه عبر من يمثله أو يتهم به، ووضعه مختلف

هنا، ولأول مرة تاريخياً، كونه الموجود والمفقود كصورة متجسدة، أو ك رأي مشخص في كائن اجتماعي أو جماعة معينة يمكن مواجهتها وربما وضع حد لها، فثمة حرب على الإرهاب في كل مكان وفي اللامكان، حيث لا حدود محدد له لاحقاً أو بناء على مواقف وتصورات تجيش وعياً ذا بعد عالمي وبأشكال متعارضة: الذين اعتبروا ممثلين له والذين يعتبرون ضحايا له ومعهم الذين يقتصون من المعتبرين جناة، هكذا يطوف الإرهاب في كل مكان وفي أمكنة محددة تكون بؤرته بغية إضفاء مصداقية على الفعل المناهض له.

في نظام العولمة الذي نحن بصدد، يحق لأي كان أن يتساءل عن هذه العبثية المعقلنة والطفرة الحاصلة في مفاهيم تتعلق بموضوعة العنف عالمياً والإرهاب الذي بات تعويذة ونوعاً من التنجيم السياسي، ومجالاً رحباً لذوي المواهب في أن ينسجوا صوراً ويصيغوا نصوصاً وأفكاراً عن هذا الكائن الغائب الحاضر، الشبح والواقعي، الاستشباحي والاستيهامي والموقعن معاً، وأعني به الإرهاب. وهذا ما يذهب إليه موران، من منظور جدولة الخطأ والصواب، هو وضع حد للشطط المفاهيمي، دون إخفاء سخطه على ما يجري فكيف به الآن، حيث يقول (وأريد أن أشرك القارئ بقتاعتي بأننا مازلنا في ليل عميق فيما يتعلق بمعرفة العلاقات بين دماغنا / والأفكار والعالم الخارجي إننا مازلنا في ما قبل تاريخ الذهن.

وهذا الأخير ما يكاد أن يبدأ في تصور معرفة ذاته. —
مقدمات، ص 179).

ثمة أكثر من شبح: اقتصادي، اجتماعي، سياسي، تربوي،
تاريخي.. يطوف في ذهن موران، ومجموعة الأشباح هذه
تتفاعل مع بعضها بعضاً، وتشكل الحصلة الكلية لمآلات
المجتمع وطبيعة التخفيضات المتتابة في القيم المجتمعية، من
جهة تقليصها، ومن جهة تمحيصها بما يجعلها متفاوتة إلى
درجة حفز كل المكبوتات المتراكمة تاريخياً وشحنها بالعنف
وتعريض الإنسان كقيمة رئيسة للعدم.

وهو في كل صياغاته يوسع حدود المعنى، لرؤية الأزمة
المتوارية وراء جماليات استعراضية واستهلاكية، ويقلب خط
سير القيم والمنوط بها مما هو مرغوب فيه إنسانياً، وعلى
مستوى كوني، إذ لا تبدو الحضارة في تجلياتها العظمى سوى
التدرج الأكثر جلاء في سلم همجية تستفحل هنا وهناك.

أورد هنا ما قاله "نيتشه" قبل أكثر من قرن (لقد اكتسبت
البشرية في مراحل تطورها السابقة عدداً لا يحصى من
الاستعدادات، إلا أنها لا تزال ضعيفة وجنينية لدرجة أن ما من
أحد يستطيع أن يدرك أنها قد اكتسبت، والتي تنبجس فجأة إلى
النور بعد طويل من اكتسابها، ربما بعد عدة قرون: خلال ذلك
تكون قد نضجت وصلبت .

— انظر كتابه *(العلم الجذل)*، ترجمة سعاد حرب، دار

المنتخب العربي، بيروت، 2001، ص 40.

21- يظل موران حارساً على مفاهيمه التي يحفر فيها ويزيدها عمقاً وإضاءة كلما تقدمت به المعرفة زمنياً، ولعل المبدأ الرئيس الذي يبدو مفعلاً في تفكيره وتدبيره المفاهيميين، هو حقيقة ما يرومه على الصعيدين: المجتمعي والإنساني، فهو حارس مفاهيمي، وربما أمكن القول: هو حيوان مفاهيمي على طريقته من جهة التشديد على فاعلية الكلمة المستقاة عنده في الحقل المجتمعي، والرؤية المتبدية عنده تعرّف بالعالم المخفّف عنفاً عبر التخلي عن مجموعة المركبات الضاغطة والمولّفة والمخلخلة لنظام كوني عالمي. ولا يتم ذلك إلا لحظة النظر في الإحداثيات المولّدة للعنف في أماكن مختلفة في العالم (في فلسطين وغيرها)، وهذا يتطلب المزيد من المرونة والتحرر من كبرياء الهوى والا ستعلاء بكل تفعيلاته الأتنية والسلطوية، والتلاقي في النقطة التي يبرز فيها الإنسان حريصاً على وجوده كقيمة مثلى.

ولعل الأزمة الكوكبية التي يركز عليها ليست وليدة الآن، إنما نشأت منذ عقود زمنية في صورتها الأكثر مأسوية، والمتمعن في صياغة تعابيره يلاحظ مرونة في إدارة الكلم، وسعيّاً إلى اكتساب ود كل من ينطلق من محورة الاستبداد منطلقاً في إقامة العلاقات مع الآخرين. إنه (وربما ما صاغه سابقاً بحدية ملحوظة، أضناه، وها هو يناشد القيميين على الثقافة، الجماهيرية خصوصاً، بضرورة اليقظة قبل فوات الأوان كونياً) يدقق في الثقافة التي تفعل الأوهام بدلاً من

التخلص من فتنها (إن الثقافة متصدعة. فهناك، من جهة " إنسانيات" فقيرة لا تعرف الاتصال بمصادر التحقق (العلوم) ولا بالمصادر اليومية للمعرفة) وسائل الاعلام (والتي تتأمل في فراغ. وهناك، من جهة أخرى، ثقافة علمية غير قادرة، من حيث المبدأ المنهج والبنية، على تصور المسائل الإجمالية وتأمل ذاتها — مقدمات، ص234).

22- حول ذلك يمكن إيراد ما قاله موران في (مقدمات، ص353)، مفصلاً عن المخرج من الأزمة (إلى الأمام من أجل الألف الثالث). نحن في المتاهة ولن نخرج من التطواف. والتخلي عن الفردوس بدأ فقط. وتاريخ الإنسانية بدأ فقط. وقبل التراجيديا الإنسانية (وتراجيديا الكون دون شك) هو الشرط الضروري لكل سياسة انتروبولوجية (.، وهو في الصفحة التالية يراهن على الحب بوصفه الوصفة الكونية دواء لداء هو ذاته يشخصه من خلال ما يسميه بـ (العصاب)، و(النخر)، وهذان الداءان لهما مرجعية نفس عقلية، أو عقل نفسية، ويشيران إلى الهوية الواسعة التي تستوطن الإنسان اليوم، تلك وكأن الحب في إهابه المسيحاني (أهي أخلاقية المسيح الممثلة؟) الملاذ الوحيد الممكن لتجاوز التصحر القيمي. وهو بذلك يلتقي مع بودريار، خصوصاً وأنهما يعلماننا بالبعد التراجيدي لما هو إنساني، والذي من شأنه معاودة النظر في الأصل الإنساني على مستوى المعمورة، والتراجيدي يعتبر المسرى المتصاعد لمقاربة ما هو سام قيمياً في الانسان،

ولتحويل مجرى الحدث، وهي دعوى لا تخلو البتة من نزعة خيالية التبلور، ولكنها لهذا السبب تحث الإنسان على معانقة المغيب في ذاته، لجعل حدث التجاوز مشفوعاً بالمشاركة الجمعية في حمل الإرث العنفي كونياً أو عالمياً، هو الحدث الأهم بامتياز.

23- ادغار موران وهو ينهي مقاله، يتهيأ لبداية مترتبة على النهاية المعلنة، ولكنه يختزن في ذهنه أنماطاً من الحياة، من رتابتها، وفتور معناها، وبؤس المعاش فيها، واصطراع تياراتها ومذاهبها المختلفة في الأدب والثقافة، وأصوات الذين تمثلهم بصيغ شتى في مادته، أصوات تتداخل وتتفاعل في النهاية رغم تفاوتها قيمياً وتعارضها، ثمة حضور للمثقف الكوني الذي يشدد على أهميته، وهو عنيف في هذا المنحى من جهة الدور المحوري والبؤري للمثقف، معه هنا يحضر ببير بورديو وميشيل فوكو ودريدا، لكن غرامشي لا يتنحى جانباً، وحضور المفكر الذي يعدم كل مفهوم في وسطه الثقافي والمجتمعي طالما تم تفرغه من مفعوله الفعلي، مفكر من نوع بودريار، وعلى مثاله، ولكن باكونين غير غائب هنا، ولا فالتر بنيامين الذي طالما ربط الحضارة بالبربرية حيث الذرائعية تضحي بانسانية كاملة، وحضور للعالم النفسي والاجتماعي، وحالات اللاشعور من نوع فرويد وماركيوز وهابرماز وجاك لاكان وجيل دولوز، هم جميعاً حاضرون فيه وهو يتحدث بصوته، الذي أريد إنهاء هذا التعليق بآخر مقطع

له من كتابه (روح الزمان، النخر، ص434)، حيث يقول (إن مصير البشرية يتأرجح بين امكانيتين محتملتين وغير محتملتين. الأولى، ويمكن أن تمضي حتى شبه الإبادة الذرية، هي امكانية النكوص المعمم . واختلال النظام، في النكوص، لا يعني الحرية والفرصة، بل العدوان والضراوة والخوف، ولا يعني النظام الحماية، بل القمع والتقيسية. وأخيراً فإن النظام واختلاله يعنيان معاً، السجن، المعسكر، التعذيب، الموت. والإمكانية القصوى الثانية هي تقدم حاسم: تكوين مجتمع يتمفصل على مسافة واقعة بين العلاقة البئية والاتحاد الدولي: إن ثورة بهذا الحجم (تتجاوز كل ما يفهم من هذه الكلمة)، على اعتبار أن الأمر سيدور حول ولادة جديدة للبشرية غير محتملة، لسوء الحظ في هذا القرن).

كل شيء يبدو كما لو أن ثورة كوبرنيكية من نوع مختلف، وعلى مستوى متمايز هذه المرة، قد فاجأت إنسان اليوم، كما لو أن العالم اليوم يشكل النقيض الكلي المحض لما كان حتى الحافة الأخيرة للقرن المنصرم، كما لو أن الأنظمة والدساتير والسياسات المعرفية قد زحزحت عن مواقعها وتم تشفيرها بصورة مفاجئة، كما لو أن (أن) هذه باتت عفريتاً كونياً فجّر قمقمه الكوكبي، وفتح صندوق باندور المرعب في كل الجهات، كما لو أن الذي حدث في التاريخ الذي نشهده في عنقه الكوني، قد جاء من خارج التاريخ. وكأن التاريخ الذي شهدناه حتى سنوات قريبة لم يكن التاريخ المدوّن حقيقةً، بل ربما هامشه أو ما دونه.

